سبحات روحية

في سيرة الامام الشهيد الصدر

السيد فاضل النوري

سبحات روحية
في سيرة الامام الشهيد الصدر

السيد فاضل النوري

شبكة الفكر
alfeker.net

الكتاب: سبحات روحية في سيرة الامام الشهيد الصدر

المؤلف: .... السيد فاضل النوري

الناشر: رابطة الثقافة والعلاقات الاسلامية ـ مديرية الترجمة والنشر

عدد النسخ: .... ۳۰۰۰ نسخة

الطبعة: .... الاولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦م

ISBN : 964-6177-52-2

حقوق الطبع محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

استاذنا الشهيد الكبير الامام الصدر فذٌّ لا كالأفذاذ، وعلم لا كالأعلام.

انه الفكر الموسوعي النيِّر، والقلب العاطفي الكبير، والوعي النافذ الىٰ اعماق هذه الأمة.

انه الاخلاص المجسد لكل المبادئ العظمىٰ، والطهر بأصفىٰ معانيه.

انه السلسال الصافي يصب نعيمه في قلوب العاشقين.. وفي طليعتهم تلامذته ومحبوه المخلصون.

كثيرون هم الاساتذة المربون، ولكن الذي يتميز منهم بالنفوذ الىٰ اعمق الاعماق قليل، ومن هؤلاء القليلين من ينفذ ويبقىٰ شامخاً خالداً في هذه الاعماق، ومن هؤلاء الخالدين من يبقىٰ يشع ويربي دائماً... والصدر العزيز العزيز في الطليعة النافذة.

كان يعشق حكومة الاسلام بمعناها الاصيل، ومذ رأىٰ الامام الخالد الامام الخميني يصنع هذه المعجزة نسي نفسه ومرجعيته وكل ما يملك، وقدم الكل فداءً لهذه التجربة العظيمة. فكتب الىٰ تلامذته:

(ذوبوا في الامام الخميني كما ذاب هو في الاسلام).

وقد حظيت بصحبته طويلاً الا انني اشعر اني لم أتم بحضرته رشفة واحدة، ولم انهل منها شربة كاملة... رحل وما زالت كل آمالي وأشواقي تبكيه بدل الدموع دماً... وكل مشاعري تصب جام غضبها علىٰ قاتليه اللئام.

وهذا الكتاب صورة من عشق تلامذته، وحروف من قلوب عاشقيه، يحاول ان يرسم صورته الملكوتية، وأَنّىٰ للقلم ان يرسم صورة الملكوت؟ وأَنّىٰ للحروف ان تعبر عن كنه الواقع الكبير، ولكن لنعتبره دعوة من قبل عالم فاضل عاشق هو الاخ العلّامة السيد الفاضل النوري لكل اولئك الراغبينَ في الدخول الىٰ عالم الملكوت والحب، كي يقربوا ويتأملوا هذا النموذج الفذ الفذ.

محمد علي التسخيري

رئيس رابطة الثقافة والعلاقات الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

سيدي ابا جعفر

يانفحة اللطف في حياة المرملين

ياعبقة المجد وشميم الكبرياء.

يادفقة النور في كثافة الديجور.

ياصيحة الحسين من علياء الإباء.

ياصرخة الرفض كمحذور القضاء.

يا من تأرَّج في الاحناء الزاكيات شذىٰ حبه.

ومشىٰ في العروق الطاهرات دفء هواه.

وكان في النفوس العاليات مكينا.

ياروضة الفهم تباغمت فيها افانين الزهور.

ياشروق الصفاء الملائكي الطهور.

سطوراً استنزل بها واهماً للناظرين بعض ما استعلىٰ فخشعت له قلوب العارفين من شأنك المبين، وكلمات اصوِّرُ بها غير مفلح ولامنجح بلا ريب شموخ حياة علوية كأنها كانت في عالم الغيب. وحروف اضمنها عاجزة كليلة معاني ذلك الوجود الصدري المعجز، غير انّ بذل القليل خير من الحرمان، واظهار اليسير خير من الكتمان،

والطموح لنيل مايدنو من المحال خير من الاقرار بالعجز والكلال.

فصفحاً اذا ماحارت السبل باليراع الباحث عن الصّـواب في أمرك العجاب، أو شطت بفكري العاجز نظراته القاصرة في معالمك الباهرة.

وليت الله يرضىٰ هذا الجهد منّا في أعمالنا الصالحات، ويكتبه لنا في صفحة الحسنات، وليتك ترضاه مني لتقر عيني برضاك وأنت في علاك.

تمهيد

مضت الاعوام علىٰ فاجعة العصر، والأسىٰ حيٌّ في القلوب له فيها دويٌّ ووجيب.

تصرّمت السنون علىٰ المأساة في كربلاء الزمان ملتحقة بركبٍ هائل من الاعوام لسجية الالم والدم في تاريخنا الاصيل منذ اطل علينا فجر الاسلام ذوداً عن الفجر تتعاوره عوادي الليل الايهم، وذباً عن الحقيقة تتكثف من حولها لقتلها دياجي الزيف والباطل.

منذ عاشوراء هذا العصر واللوعة تجيش كأنها مرجل، والقلوب مع الاحزان كأنها في احشاء بركان، والنفوس المفجوعة بالخطب الاليم في غيابات الغموم لاتبرح ولا تريم.

منذ ان نعىٰ الناعي عملاق هذا الزمان فكراً وسعياً حتىٰ الساعة والفاجعة لاتفتأ معنا جمرة في القلوب لاتخبو، ودمعة في العيون لاترقأ، وحسرة في الصدور لم تعتم تتردد.

تمر علينا وعليها الايام لا لتباعد ما بيننا، بل لتزيدها بنا التحاماً، وفي أعماقنا اضطراماً، بحجم تاريخ كامل من الفواجع وهذا من سجايا المصائب معنا، ومن سجايانا مع المصائب.

فمن سجايانا معها انها قَدْرُنا وقَدَرُنا.

اخترناها واختارتنا، هي قَدْرُنا لأنّ عظم النفوس بعظم تحملاتها وآلامها، وهي قَدَرُنا لانها رهن الايمان تتبعه اتّباع الفصيل اثر أمّه، وتكون

معه في حال الاطراد ككفتي الميزان كلّما زاد هو في كفة زادت هي في الاخرىٰ.

ومن عجائب امرنا في الحياة ان مصائبنا مفاخرنا، وان فواجعنا مآثرنا، وأن مسيرة الالم والدم سمير لا نأنس بسواه، وانيس لا نرتضي ماعداه، حتىٰ نبلغ غايتنا المحتومة بعد محنة السُرىٰ، نصراً مشرقاً كأنه شمس الضحىٰ، ورسالة خفاقة اللواء تفيض بأفانين الآلاء.

قتل الصدر صبراً، ومضىٰ الىٰ عليّين شامخ الجبين، وقد أبىٰ الله الاّ أن يجتبيه للصدارة علىٰ شتىٰ فنونها، صدارة المَحْتِد والنسب، وصدارة الفكر والعمل، وصدارة الفداء والشهادة، علىٰ اثر جدِّه الحسين كان ينقل الخطىٰ، ينهل من معين الصبر عنده فيضاً من الصبر، ويستقي من نبع الصلابة في دنياه الزاكية الأبية مايبلّ غلته الىٰ الكأس الرويّة يقوىٰ بها علىٰ بلوغ اسمىٰ المرتجىٰ وغاية المنىٰ «شهادة» يبقىٰ بها الصدر علىٰ فم التاريخ آية في البذل والعطاء يرتلها بخشوع واجلال، ولحناً عذباً في الفداء يردده علىٰ مسامع الاجيال. وكان الصدر في دنيانا ومضىٰ، عمر ومضة عجلان ما انقضىٰ، اما نورها فقد ظلّ قضية لا يعروها الفناء، مستقرها ومستثارها القلوب والدماء، رحابها كل يوم في اتساع، وآفاقها كل حين في امتداد. وطلابها وجنودها كتهتان المطر، كل فوج يليه فوج علىٰ الاثر.

ليس فينا بني الايمان ولا في اهل هذه الملة هذا اليوم من لا يعرف

الصدر وشأنه إلاّ من لم يعرف عن الإسلام الاّ اسمه، ولم يدرك منه إلا رسمه.

اما من عرف الإسلام كما أتىٰ فكرا علوياً يزري بكل تفاهات الارض واوهامها، ونظاماً كونياً لم يغادر من شؤون الحياة صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها في احسن تقويم، وأروع تنظيم، فقد عرف الصدر وشأنه فهما من هنا يعرفان وذلك عليهما أدلّ بيان.

كان الصدر وما زال وسيبقىٰ ديمة سمحة جمّة الآلاء، فكره العبقري طود شامخ، تشخص صاغرة عن سفحه حلوم المفكّرين، وابداعه المعجز خضم هائل تجمد عند شطآنه من هوله فطن المبدعين، وجهاده الفذ نهج في الفداء سارت وتسير عليه قوافِل الأبرار من أبنائه المخلصين، واخلاقه وشمائله في كلّ شؤونه هديٌ متكامل أطل من روح الايمان قدوة لمن يقتدون، ومناراً لمن يستضيئون. كانت حياته طهراً ماثلاً يتلألأ كالشمس في اشراقها، ومعيناً دائب الفيض، تمحّضت للخير والندىٰ، وهي جهاد موصول الحلقات متواشج العرىٰ من الصّبا الىٰ المنحر.

فقمين ببني الإسلام ان يسيروا علىٰ هداها، ويقتفوا خطاها، ويجعلوها مستضاءً واسوة علىٰ الدرب تنير لهم ظلماءه، وتخفف عليهم غلواءه، فاذا هو مسير في السبحات والنور لايلوي ولا يحور، فاما وسام الصدر بالشهادة والفخر، واما نيل ثأره بالغلبة والنصر.

وما زالت تحل علينا. بل تنبعث من قلوبنا ذكرىٰ الرحيل الطهور الىٰ

عالم الرضوان والنور، رحيل العظمة، قد تجسّدت في هيئة انسان، رحيل المحاسن قد تمثّلت في وجود بشري للصدر كان فينا ونأىٰ كعطر الزهرة المتضوع مرّ علينا مع النسيم تشممناه ثم فارقناه.

مالأوصالي ترتعد؟

وما بال قلبي يخفق بين جوانحي اذ أهم ان اكتب عنك؟ مالي أراني نهب الإقدام والاحجام إزاء فكرة الكتابةِ في حياتك القدسية؟!

مالقلمي وقد عهدته بالأمس سيالاً سريع الخطىٰ اضحىٰ ازاء سطور عنك وئيد السير كأنّه يحمل أثقال الدنيا؟

لقد حق لها ان ترتعد الاوصال، ويخفق النابض، وان اتيه أنا في الحيرة، وأن يتباطأ القلم ويتثاقل،فمعنىٰ ان اكتب عنك اليوم هو انني أرثيك إذ أطريك، وأؤبِّنُك اذ أصف مزاياك الحميدة للناس، وأكشف عن خصالك المجيدة لهم بعد أن فارقتهم فروحُك في علّيين، وجسدك تحت اطباق الثرىٰ، وهذا مالم تكن نفسي ترضىٰ ان تصدق به، فلا أعزَّ عليها من ان تسلِّم بأنّ الصدر العظيم قد فارق الدنيا فراقاً أبدياً، وأنها لن تراه، وتبصر فيه عظمته وجلاله وروحه السماوية المطهرة من جديد.

وانه ليتكأدها ويستصعبها ان تقر بالأمر الواقع الذي يقول: (انّ تلك النفس العُلوية الزكية قد رحلت فلا أوبة، وإنّ ذلك العقل الفريد المبدع قد غاب عن الدنيا فلا رجعة، لقد فارقاها دونما معاد).

اشهدك ياسيِّدي أنني منذ الأمس الكريه الذي نعوك فيه للملأ حتىٰ هذه الساعة لم أفهم أو لم أُرِد أن أفهم هذه القضية ذلك الفهم الذي يُطبق علىٰ التسليم به العقل والشعور، فما زال بينهما في هذا الأمر هُوّة واسعة.

فها أنا لحكم العقل بموتك محزون علىٰ قدر ماتتيحه لي الاستجابةُ لحكمه في قضية لم تُسلِّم بها المشاعر والاحاسيس، ولن ترضىٰ أن تُسلِّم ماكرّ الجديدان وما اعتقب عليها من الزمان.

انه إعجاز شخصك في نفسي يزعُّها زَعّاً عن ان تُصدِّق بموتك إذْ تحسب مخطئةً أنّ موتك خلل في إعجازكَ، ويدَعّها دَعّاً أن تصدِّق ان الصدر المعجز قد لُفّ بالاكفان، وغيِّب بين أحناء التراب.

إنه حضورك في قلبي ذلك الجلي الدائب الملحّ المهيب كشمس طالعةٍ لا تغيب، يخدعه ويُوهِمُهُ بأن الحاضر الجلي فيه لم يزَلْ حاضراً جلياً في الحياة والأحياء.

ويقعد به تطلُّعه في نور تلك الشمس الوهّاجةِ المشعشعة الواصبة، في أنحائه عن أنْ يَرقىٰ إلىٰ التسليم بالأمرِ الذي قد كان، وأنّ شمساً علىٰ قالب انسان يقال له «الصدر» قد أفَلَت، وذهبت وراء الافق. انه نور حقيقتك الشاخص الثاقب حجزني عن التسليم بقضية نور وجهك الغائب.

لقد نعاك لهم الناعي فبكوا لأنَّهم صدّقوا.

أما أنا فقد ذابت أركاني فهويت لاقرار العقل إلّا دمعتي فهي جامدة

لاتذوب، اذ لم تسعفها لتذيبها حرارة الاحساس بالمصاب من القلب الذي لا يُريد أنْ يُصدِّق.

ورفعوا اللافتات وساروا متظاهرين، وسرت معهم مُنقاداً بزمام العقل الذي أقر بالحقيقة الحاصلة، غير أنّ عواطفي تصيح بألف لسان: عجبا لكم أيّها المتحشدون، كيف سارعتم الىٰ الإذعان وألقيتم بأيديكم، وأسلمتم قياد القلوب لسطوة التسليم؟

وهل كان من أذعنتم لحقيقة الرزْء به كأحدٍ من رجالكم يسهُل عليكم ان تفجعوا به وأن تقرّوا بالفاجعة لتعطوها من الشؤون والشجون مايكون وفاءً لمعشار حقِّها او لا يكون؟!

لقد أنصفتم انفسكم، وصدقتموها الخبر، ولم تخدعوها فذاقت أياماً لوعة النبأ الأليم، وودَّعت من الحياة صدرها العظيم، فتطامن جموح اللوعة، وسكنت عرامة الخطب، وخمد هياج الغمّاء، ثم مرت بكم الأيام فاذا الصدرُ في حياتكم ذكرىٰ تجدِّدونها كل عام.

أما أنا فما زالت نفسي والفاجعة في قطبي هذه الارض بينهما بُعدَ المشرقين، تتبدىٰ لها هذه من المغرب حالكة السواد، فتطلع عليها تلك من المشرق بضياء الصدر المقيم فيها، فلا ترىٰ وهي في لجج النور الثاقب تلك الظلمة المغربيّة التي تنقشع، فلا يبقىٰ منها إلّا خيوط باهتة يبصر ويقرأ فيها العقل وجه الحقيقة وحديثها، أمَّا النفس المحبة الولهىٰ التي اعتنقت طيف

الحبيب تحسبه هو، وتعلّقت عينها بجماله وجلاله كأنَّها تراه حساً، فلن ترىٰ، وإن رأت فلن تصدق، ولن تقرأ، وان قرأت، فليس إلاّ ظلال حروف معكوسة عجلان ما تصاب بالكلال في ترتيبها، والعجز عن ردِّها الىٰ أصلها فتغض طرفها عن وَجْه الحقيقة المرَّة لتحتضن الوهم، يبرِّحها من العقل نداء غليظ متصل يقول لها: (**قد كان ما تتخوفين من الخطب الجلل، ولقد احسن الناس حين أقاموا مناحاتهم فأطفأوا بالدموع نار التفجُّع، وأخمدوا بماء الشؤون لظىٰ الشجون، وأذلوا بالإقرار والتصبّر وطأة الْمُلمّ الجسيم، أما أنت يا نفس فارضي اذا شئت بالمكابرة والشموس لتصطحبي الفاجعة مدىٰ الدهر، أو اركني مستسلمة، وأصغي الىٰ النداء الحق ليكون لك مع الفاجعة ما كان للناس، فورةٌ من العناء أطفأتها رويداً رويداً سحب هاتنة من السلوِّ والعزاء**).

ولا يزال هذا هو دأب نفسي النافرة الحرون، تصك سمعها صيحة النبأ الفادح فكانها لاتسمع الا نَبَأَة[1]، وتترىٰ عليها براهين الواقع فكأنها لا ترىٰ الا أوهاماً نسجتها الخيالات، لقد اصمّها الحبُّ واعماها فعزّ عليها ان تشعر بالخيبة في هواها، أو جلَّلها خوف التصديق وغشّاها، فحجبها عن حقيقة هذا الأمر في دنياها.

---

١. النَبَأَة: الصوت الخفي.

المقدمة

الحديث عن ذلك القلب العملاق الذي تمحّض نصاعة ويقيناً وعشقاً، وتلك الروح السامية التي تجسدت ألقاً واشراقاً وسموّاً، وذلك العقل الفذ الذي طلع علىٰ البشرية من افق العلياء نبوغاً وشموخاً واقتداراً، وتلك العزمة الشماء التي ثارت إعصاراً جبّاراً من صميم الهمة القعساء لليقين الفرد والوفاء الوتر، وذلك الايمان المتجسم صدقاً وعرفاناً ورسوخاً، فلم يكذب حيث تتهاوىٰ دعاوىٰ الكاذبين، ولم يُستشف او يُسبر لأنه محيط هائل بلا قعر ولا ساحل، واندفع ذوباً في مصهر العُلقة الرائعة، ومنافسة للأطواد الشامخة في الأستمساك. الحديث عن ذلك كلِّه صعب عسير لانه يحتاج الىٰ حديث الحقيقة التي لاتنُطِقها الألفاظ البشرية العجم واللغة الشلّاء، وهي ليست تألو علىٰ بعدها عن ذلك جهداً في (الفضول والتطفل) للافصاح عن بعض الشعاع الغامر والفيض الزاخر، دأب الكوة او القطرة في الافصاح عن غمرة الشمس أو امتداد البحر، وكما تبقىٰ هاتان عاجزتين عن ان تشيا بحقيقة مادلّتا عليه تبقىٰ أدواتنا اللفظية، علىٰ ضعفها المشهود، في طوق العجز عن الوصول الىٰ معالم العظمة في هذا الوجود، كأنها ريشة تروم السبح في الاعصار القاصف، او عين عشواء تريد ان تسبر بالنظر الواهن اجواز الفضاء، او يدٌ جذّاء همها ان تنوش ذُرىٰ الجوزاء.

هكذا الحديث عن شهيد الاسلام الخالد، حليف المحامد، الامام الثائر، القتيل في سبيل الله والثورة علىٰ الطغاة، السيد الصدر، عليه تحيات

الله وبركاته. واذا كان لابدّ من شيء يعرّف بعض شأنه وفاء لحقيقته الجديرة بالبيان، وأداءً لواجب العشق له، ذلك الذي مازلت احترق بناره مذ عرفتُه فأحببتُهُ، واعظاماً لذلك الشأن الرفيع الذي يكون عرفانه والذوب فيه، والترنم بترانيم الوَلَهِ به، من تعظيم الحرمات المطلوب فرضاً علىٰ العباد الذين عرفوا الله وحرمته واولياءه العظام وحرماتهم، فوقّروها، وقدّسوها، وأعطوها بعض حقها من كل جهدهم، وبقي سعي النيات الصادقة في فسيح اللهفات الحرىٰ حافداً الىٰ نيل رضا الله وعفوه عن القصور او التقصير.

فالصدر شخصية عظيمة من فرائد النفوس العليّة وبدائع الذات الأزلية، ارتضاها الله وأرضاها، وحبا بها بعد ما حباها، فزين بها فيما زيّن به الدنيا الشوهاء، وهدىٰ به فيما هدىٰ به في الداجية العمياء.

لقد كان إنسياً طهراً متجرداً كأنه ملاك، وكان روحاً متمحضة للشفافية والصفاء واللطافة كأنه لم يعرف الجسد الخنّاس ولا نوازع الوسواس، وكان فضيلة متعالية تزهو في ذروة التسامي، تزري برذائل الدنيا وطلابها، وكان عشقاً فرداً وسع هواه العذري وجود الغرام والهيام والهاث في سبحات الحبيب الأسمىٰ ولهاً وتراً ليس له مثيل.

في قلبه حكمة بالغة يفوه بها ضياءً وبهاءً، وفي عقله فكر ثاقب يبديه سداداً ورشاداً ودلالة هادية، وفي نفسه شعلة وهّاجة من العرفان يلذ بها لذة لا يتسع لها فهم الدنيا، ولا تحيط بها فطنة ذوي الالباب، وفي روحه

ضمير حي دائب، ووجدان متيقِّظ حسّاس يكمن فيهما بمنتهىٰ الحضور والرقابة هيبة ربِّه وجلالُه يحضّانه علىٰ الخير، ويزعّانه عن الشر، ويقفان به وقفةً عاصمة او شبه عاصمة عند حدود الله، ويأخذان به أخذاً مقتدراً حازماً الىٰ ما فيه رضاه.

مقاوم الحق هي مهوىٰ سلوكه البديع، ومنازل الصدق هي مواضع خطاه النبيلة المقدَّسة علىٰ النهج الرفيع، ومذبح الظلامة المشهودة لم يبرح يسيل عليه دمه الزكي ليملأ راحَ الشموخ يشمه عبيراً يزري بكل عبير، ويرفعه الىٰ السماء تجلّةً وإعظاماً، ويستخلص معانيه السامية ليرشها في الآفاق دروساً في الفداء، وآيات للتضحية، ومستثاراً للهمم والعزائم.

الصدر وقدة لا تخبو في قلوب المجاهدين الذين ساروا علىٰ طريقه مهطعين، وحسرة ضارمة واصبة في صدور ذوي الأسىٰ المتصل لمأساتهم به.

(والصدر هو وصل القضية الكبرىٰ بأمها، ووشيجة المعنىٰ العظيم بأبيه الذي ذابت له مهجة السبط الشهيد في كربلاء)، وورثَهُ ثقلاً هو تاريخ من الآهات والحسرات، فذاب له ذوباً حسينياً تجدَّدت فيه فصول التهمام والآلام الطفِّية التي لم يزل فهم التارخ يتلوها آيات من وحي النجدة والفداء للحق المهتضم.

(الصدر ظلامة الاولياء الذين لم تعرفهم أيامهم، ولم يخبرهم اقوامهم، ولم ينصفهم الحسد الظلوم، ولم يرحمهم الحقد الغشوم،

فعاشوا نبذ الجهل والعداء، وعرامة السفهاء الأشقياء، وتجرّعوا نُغَبَ المرارات، واكتووا بنار الحماقات، فصبروا يعلمون الاصطبار دروساً لم يقرأها، ويطلعون عليه بمشاهد لم يبصرها، فيخشع للمشهد العجيب، قد طوىٰ دنياه الممتدة فضاء رحيب، امتدّ وانداح من تصبُّر الصدر حتىٰ طوىٰ بيمين الاقتدار كلّ معاني المرابطة الشامخة، فهي سكرىٰ بصعقة الهول من دهشتها).

لله هو حيث كان في أفانين الغمرات للأهوال يخوضها بعجائب البطولات النفسيّة، وفرائد الحماسات المعنويّة، فاذا هو علىٰ اثباجها المتلظية وهامات موجها المستعر صلابة طودية لا تنحني، وعزيمة هادرة لا تخور ركل المحن كلها بالقدم الثابتة للايمان الثابت بعد ما قارعها بالجراح النازفة، وثاورها بالكلوم الراعفة، حتىٰ اذا عاد كله جرحاً واحداً تفجرت ثورة النزف فانطلق عزم الشهادة من عزّة الجبروت يقتحم خضم الآلام بلا مهابة، ويباسل جحافل الشرور بلا شيء من الخوف.

ثمة في عالم البأس المطلق والعزم المستخلص والاقتدار العجاب الذي حير الألباب.

لله ذلك اللواء الرافع الفذ طلع جديداً غريباً وحيداً كأصله لواء المصطفىٰ، ومشىٰ علىٰ الدرب يجدد فصول تلك الملحمة العظمىٰ، ويحييها في الواقع بعد اذ هي روايات في التاريخ تُقرأ علىٰ المنابر.

حار في أزقة النجف كما حار جدّه في أزقة مكة، وزعق في وجـهه الاكابر والأشراف، ونبزه الجاهلون بمنكر النعوت، ورماه الحمقىٰ بحـجارة التسفيه والتقريع، وعصفت فيه زعازع الصنمية للفكر المتحجر، وعـبادة القديم ارث الاولين، وخلق الاقدمين، ولقي من العنت المستنشيط مالا قبل لاحد سواه به، وهرع اليه السفهاء بالقوارع، وقعدوا له في مرصد المساءة، ولم يألوه الاّ خبالا، ولم تضق قلوبهم بما طـوت مـن المـدىٰ الفسـيح مـن الكراهية والشنآن، ولم تضعف ايديهم عن ان تبسط بالشرور، ولم تـتوان اقدامهم عن ان تخطو خطاها المسرعة صوب اذاه، ولم يزل دأبهم التركاض في شؤون الوقفة في وجهه بألوان ما طلعت عليه مـن فـنونها وشـجونها، وخاضوها عليه حرباً عواناً اعلامية ونفسية، وجعجعوا به حتىٰ تركوه رهين شعب الوحدة الاّ من صفوة الناصرين، ومنعوا عنه الناس وعونهم، وألّبوا عليه اغرارهم، فصيروهم صحفاً تنطق بمثالبه المزعومة ومعاييه المفتراة، ولم يقعد ببعض ذوي الاضغان حقدهم اللئيم عن ان يشوا به، ويحفزوا عليه همة عدوه الحاقد، ويشحذوا سيفه الباتر، ليقدّ رقبة من اقضّ مضاجعهم، وأرّق دجاهم، وجعلهم نديّ الهم والأسىٰ، في ليل طويل ثقيل، يسامرون الشبح الرهيب لذلك الرجل العجيب.

ولله ذلك الصوت الذي لم أنسه ملائكياً منساباً كأنه همس الندىٰ في السحر، ينسل بهداه عبر حواجز الرين والاوهام يمسح علىٰ القلوب بأنواره

الحالمة ينقيها من الواثها، ويجلو عنها اغباشها، ويوقظها رفيقاً وادعاً في عالم الصحو والانعتاق، لتنطلق معافاة نشيطة بروح الصفاء، وقدرة النقاء، تحلق في عالم الفضيلة الممتدة بلا حدود، المتمادية بلا آماد، الضاربة في اعماق الحقيقة الناصعة الخالصة، حيث التجلي والمثول في لجج الانوار والبهاء في أحضان الحياة السامية في المنأىٰ القصي عن أوزار التراب، واثقال الطين، وكبول العالم الدنيوي، واغلال الحياة المعتمة الهابطة.

لله هو لم انسه بريئاً وادعاً قد حَفَدَتْ اليه المزعجات الوتر بمعابلها النكر، فمدّ اليها يداً بيضاء خالية من اسباب المحاجزة والممانعة يذود بها عن قلبه الغافل المحصن فاستعصمت تلك بخبثها وشراستها، وراحت تلحُّ بطعنها الدراك المتصل علىٰ ذلك الفؤاد المتلفع بدرع الصبر العياء الممتنع علىٰ البلاء يقفوه البلاء، فما أفادت غير الأرق الشريف، والسهاد المقدّس، والدمعة الحانية الرؤوم تُذرف اسىً وحسرة علىٰ الذين يكون ظلمهم له مباءة اثمهم ووزرهم، ودعاءً خاشعاً عارفاً بالمغفرة ينبعث من نار اللوعة لحيف ظالميه ونور الرحمة لخبطهم في متاهة البغي والحسد.

تا لله لا أنساه ينطق بالكلمات الهادية في غربة ضيقة خانقة، لكنها في امله الباسم فسحة الكون، ويطرح فكره الفذ المجدّد في وحدة التفرّد ولوازمها من عرامة النُّسك الجاهل، والغيِّ المتهتك، ولكنه في اقتدار اليقين والبصيرة والاحتساب كان في عالم الانس الطافح بنصرة الحق الظافر

وعاقبة الحقيقة الخالدة واهلها الكثر شاهدين، او في ارحام الايام تتمخض عنهم ولاّهاً متيمين يدينون باعظم الولاء لعاشق الحقيقة الصابر المنتصر، ويذرفون دموع العشق والعرفان والامتنان تهيجها قلوب والهة، ونـفوس هائمة، قد امتلأت بحب الصدر الذي أبىٰ الا ان يـتقمص الحـق في غـربته ووحدته، وتبعات نصرته، ليكون بعد برهة مرابطة محتسبة فضاءً ممتداً من الانس للغرباء والمستوحشين، وسكناً ناعماً للمرهقين والمعذّبين في أطواء وحدتهم وغربتهم.

(ولا أُنساه يتلو علينا بعض النبوءات عن أمرنا كأنما يـقرؤها في صفحة الغيب المشرقة في افق بصيرته النافذة، يحدثنا عن دنيا الرشيد التي كانت تتسع لكل شآبيب السحب الهاتنة تحوزها جميعاً، ولا تغادر منها شيئاً لا تصيب درّه وخيره، فكان يسخو لها بكل شيء حتىٰ دينه، وعن دنيانا التي عجت بالاوهام، بينها وبين الواقع بعد الحقيقة عـن اضغاث الاحلام، لا تعدل مثقال ذرّة من دنيا هارون، فنضن عليها بكل ديننا او الكثير منه، وعن الهوىٰ الهارونيِّ السخيِّ المـتربص في ظلمات الاعماق المستترة وراء حجب السرِّ او سره، الكامنة في اعماق نزق الوثبة للنزعات والنزغات، وعشق الزخرف السـخيف خـنقها دون التفجر قصور الاسباب، وقضية (المقتضي والمانع) فـاذا محّـص البلاء بنعيمه الآسر الأخاذ هناك تكون أية الصدق والكذب، ويمتاز

الديانون الصادقون عن غيرهم الذيـن ان خـنست دنـياهم قـبعوا متدينين، وان طلعت عليهم بزبرجها وثبوا متحللين).

الجانب الخلقي

الجانب الخلقي من حياة الامام الشهيد مثال حي جامع لتربية الاسلام وخلق الرسالة الالهية، قد نسجت خيوطه المباركة من روح التربية القرآنية، ووشجت فصوله المنيرة من كيان الهدىٰ والاستقامة، فلا يرىٰ حيث ادرت الطرف فيه الاّ فضائل عبّاقة فاحت طيوبها، ومحاسن لألاءة أضاءت شموسها، ومكارم قدسية قد طلعت بوجوه ملائكية. لقد كانت للامام روح ملكوتية تمحضت يقيناً وكمالاً، وتجلّت طهراً وصفاءً لا يشوبها شوب من السوء يعيب طهارتها، ولا يخالطها مسّ من الكدر يشين صفاءها ونقاءها، ولايمازجها، نزر من الريب ينقص حظها من يقينها ورسوخها في عالم الحقيقة، ولا عجب فهي حفيد الكمال، وسلالة الطهر، وعترة اليقين، وهي قبل هذا غذيّة القرآن، ورضيعة الايمان، قد ترافد النسب والسبب علىٰ تنقيتها، وتناهض الاصل والعمل علىٰ الارتفاع بها الىٰ بحبوحة الحق اسوة لمن ارادوا الله، وقدوة لمن عشقوا الذرىٰ والمجد.

يخبط في الوهم ويعمه في الديماس، ولا يعطي الامور حقها ولا يأتيها من وجوهها، من ينظر الامام الشهيد من جهة علمه وناحية فهمه فيقول ما اعظم هذا الرجل فقد كان فيلسوفاً، او نابغة، او يتيمة الدهر في فكره، واعجوبة الزمان في عقله، زاوياً نظره عما كان عليه الامام الشهيد نابغة واعجوبة، من السعي الىٰ كمال النفس، ومعرفة الباري واداء حق العبادة، وليس العلم الاّ وسيلة الىٰ هذه الأمور وطريقاً اليها، فشرافة العلم في شرافة

غايته، وجلال قدر الفهم في جلال قدر الهدف، والاّ فياضعة الفهم الذي لايجدي،ويا خسيس قدره!

لم يكن الامام الشهيد في ذلك المقام المشهود والمنزلةالقاصية ليقول عن نفسه أو يقال فيه (عالم لايطاول في علمه، عبقري لايُحاول في فهمه).

انما كان الامام علىٰ ذلك القدر من الشمول والاحاطة والنبوغ لان دينه شامل، محيط يزخر بحره العباب بالعجائب ويتلاطم تياره برغائب العقل، وضوال الحكمة، ولذا بذل غاية جهده في معرفة دينه فذلك السبيل بعد معرفته ربه الىٰ ان يعطي معبوده حقه بما فرضه من العبادة التي اوعبها عقله لتتحرك بها اركانه. امّا من ينظر الشهيد السعيد نفساً متكاملة، وعملاً زاكياً رضياً، وخلقاً رفيعاً بهياً، فذلك الذي رآه من حيث ينبغي، ونظر اليه كما يجب وأفاد منه وأفاد به.

(ان العقول الكبيرة كثيرة، وان الافهام المشهورة موفورة. وأمّا النفوس التي تقاد بزمام العقول، والقلوب التي تملك اعنتها الافهام، والسلوك الذي يصنع علىٰ عين اللب وبيده، فتلك نوادر قلّت، وشوارد قد استعصىٰ طلبها، وأعيت علىٰ سعي الطالبين).

ان الامام الشهيد قد استحوذ علىٰ القلوب، وكان له موضع الاعظام في النفوس بعمله قبل علمه، وبتقواه قبل فهمه، وبنزاهته وقداسته قبل عبقريته واحاطته، ولذلك أحبه من لايعرفون العبقريات ليقدروا اهلها

بقدرها، وشُغفَ به حباً من لايدركون العقول النـافذة والافكـار المـبدعة ليعظموا اصحابها ويدينوا بالاكبار لذويها، ويخفضوا لهم جناح الذل طاعة وانقياداً.

(لقد أبصرنا فيه مخايل الصدِّيقين فأحببناهُ وأطـعناه، ورَأيـناه بحالِ الأتقياء فأعجبنا به، وخضعنا له، ورأيناه يَهابُ رَبّـهُ ويَخـافه فَهِبناهُ وخفناه، ورَأيناهُ قد أسلَم زمامَ قلبه لخالقه، فَوهبناهُ أزمّةَ قلوبنا لانخشىٰ مَغبّة ذلكَ الانقيادِ، ولا غائلةَ ذلك التسليم، ولا عقبىٰ تـلك الطاعةِ، لأنّ مَن يخافُ اللّهَ لايهدينا الىٰ سواه، ولا يدلنا عـلىٰ غـير طاعته ورضاه).

أه ياتلك النفس الرضية العالية التي كانت فينا فـيضاً مـن اللـطف الميمون حبتنا به السماء تحنناً غير أنّا جهلنا عظيم النعمة، فما عرفناها حتىٰ فقدناها.

آه يا ذلك الخُلقُ الرفيع البديع الذي توقد في دنيانا نوراً بهيّاً غـمر آرجاءنا بالفضائل العلية، واضاء دهماءنا بالمحاسن السنية، وفـاح مـنه في اجوائنا الهابطة شميم السمو يدعونا الىٰ العروج بارواحنا الىٰ آفاق الكمال، ويستنهض فينا همم التعالي، ويستثير فينا عزائم الارتقاء.

آه ياذلك العقل الفرد الذي سجدت له العقول يعتصرها الخشوع في محراب الإعظام والإجلال.

آه يا ذلك الفكر الثاقب الذي هوت صَعِقةً بين يديه الحلوم والأفهام خاضعة خاشعة.

آه ياتلك الرجولة الباسلة التي وقفت تتحدىٰ الطاغوت العـاصف كانها الجبل الاشم الراسي، تهزأ بصروف الباطل، وتسخر من رعود الوعيد والتهديد، لانها كانت لله ومن الله، ومن كان هكذا فليس يعبأ او يحـفل، ولانها كانت للحق، ومن كان له فهو بعين الله علىٰ ميعاد من نصره وتأييده بالشهادة الثائرة او بالغلبة والظفر.

آه يا ذلك القلب الكبير الذي وسع الدنيا مداه وان كان فيها كقبضة كف، واحاط بها وإن كان في اعلاقها رهيناً، ورقىٰ هامها يبصر فيها ويفيض البصائر وان كان فيها في غمراتها قد طواها بيمين اقتداره، واحتواها عمقه واحصاها تدبره، ونفذ في ارجائها بصره، وملك زمامها ولم تملكه، وقادها بخطامها ولم تقده.

بهارجها المغريات في عينه تفاهات، وزخرفها الخادع الرغيب ليس له في رغباته نصيب.

قلب تمحّض للمعالي، وهام شوقاً الىٰ ذرىٰ المكرمات، متنصلاً عن هموم الدنيا الاّ هم اصلاحها، معطلاً في شوؤنه شأن الرغبة فيها، معرضاً عنها زارياً بها، ساخطاً عليها لنفسه، قد تمثل له جلال ربه فكأنه قد رآه فَصَغُر في عينه ماعداه، وشَخَصَ له نعيم ربه فكأنه قد ابصر فهو منصرف الهمّة شطره،

خالص الرغبة فيه، منقطع الشوق اليه، قد أستكثر من أمره قليل ممارسته لشؤون الانسان الدنيوية التي غرست في جبلته، واستقل كثير رياضته لنفسه وعصمته لها، وحرصه علىٰ قربها من ربّها، وصونه لكمالاتها وفضائلها.

قلب لم تعرف اليه توافه الهموم سبيلاً، ولم تجد عنه عظائمها منصرفاً، قد حازته المكارم اليها فهو عن المناقص في منأىً قصي، وطارت به المحامد علىٰ جناحها فهو عن الرذائل في المكان العلي.

(انظر حياته حيث شئت وانىٰ شئت هل تجدها الاّ علماً واسعاً نافعاً، وشعوراً زكياً، وعملاً صالحاً راجحاً، وفضيلة مشرقة، وخلقاً رضياً، ودمعة حرّىٰ خاشعة من تقوىٰ الله او رحمة لعباده).

لقد احببتك ياسيدي مذ رأيتك حباً عجباً لانني لم اعرف اصله، فاذا كان حب الشيء من معرفته او الاعجاب به، فانا اذ ذاك اقل من ان اعرفك علىٰ حقيقتك، او أدرك كل مزاياك التي تثير الاعجاب.

بل احببتك حباً مبرأً من أن يكون مستثاره مايسمونه (التقليد) فلم اجد حبك في قلبي يعني تقليدك والعمل بآرائك، فذلك شأن المقلدين، بل وجدته هياماً او كالهيام، وصبابة او كالصبابة، وهذا هو شأن العاشقين. لقد احببتك منذ سمعت بك، فقد جعل الله حظك موفوراً مما اراده الله لاوليائه!

﴿إنّ الذينَ آمَنُوا وَعملوا الصّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهم الرّحمنُ وُدّاً﴾.

وكثيرٌ هم اولئك ياسيدي الذين احبوك وعشقوك شلي حتىٰ قبل ان يفهموك، وكان هذا سراً كشفته الأيام علىٰ لسان الشهادة، بل قبلها اذ استبان انك رجل الهي مقدس قد احبك الله وارتضاك، واراد لك ان تستوي علىٰ عروش المحبة والقداسة في قلوب عباده، فألهمهم حبك وتقديسك ليعرِّفهم بعض شأن اصفيائه عنده اذ يحبهم ويمكنهم من أزمّة الاعماق ومقاود الافئدة، ويبيح لهم فاتحين ظافرين حمىٰ النفوس.

انه ياسيدي عالم شاسع بعيد الجوانب، قد امتد حتىٰ ترامت أطرافه، هذا الذي اريد ان الجه فأقتبس من انواره، واعبّ من تياره، وأقتطف من أزهاره. انه عالمك الرحب المضيء المتضوع، الرحب علىٰ سعة عقلك وقلبك، المضيء بنور علمك وعملك، الفوّاح بأريج شمائلك وخصالك، ولا عليّ بعد ذلك ان قَصَرْتُ طرفي علىٰ صوب واحد فيه مخافة ان يتشعب النظر فيتيه الفكر، وليكن الصوب المنظور هو الجانب الخلقي من حياتك الطهور، فهو عندي اصدق خبراً عنك، واجلىٰ بياناً عن شأنك، وأيسر سبيلاً الىٰ معرفتك، وصفحاً ياسيدي ثم صفحاً ان كنت نسبت اليك كلاماً قاله لسان حالك الموحي لا لسانك الناطق مجاراة لشبيهاته الو افرات من كلماتك الساميات، او رسمتك اذ غبتَ عن عيني وعزّ علي التحقق بحال أنت اهلها وهي شأنك محاكاة لنظائرها الكثيرات من احوالك البديعات.

العبادة

(لقد كان الأمامُ الشهيدُ الصدرُ أعـرفَ النـاسِ بـالله فكَـانَ أخشاهُم له، وكَان أَدراهـمُ بحـقّهِ وطـاعتهِ، فكَـان أَسـبقهم إليهـا، وأَوفرهُم حظاً منها، وكَانَ أوسعهم عِلماً بدِينهِ وفروضِ ربه، فكـان أنصَبهم عبادةً له، وَأجهدهم لأركانهِ في عبادته).

لقد كان له من آبائه الاكرمين سجية العشق الالهي، وخصيصة الهيام بالباري، فكان معشوقه دائم الحضور في قلبه، واصب الشخوص أمام عينيه وعلىٰ لسانه لا يفترُ في ذكره مسبحاً له، أو تالياً لكتابه، أو هادياً اليه، ومبيناً لأحكامه، او ناشراً لشرائعه وفروضه.

كان متيّمه إزاء ناظره فهو موقوف الطرف عليه، موجهاً وجه روحه اليه، مطمئن القلب بذكره. **(لقد كان ربّهُ حاضراً عنده لا يـفارقه، فـهو معرفة في عقله، وذكر علىٰ لسانه، وعمل بأركانه، ولم يتبق من الصدر لغير ربه الاّ صبابة في الاناء هي بلغتهُ من حياته، اذا كان لابد من هذه البلغة)**. اذا جنّه الليل وهو ربيع العاشقين كان للمدلّه المعمود لقاء بربه لا يساميه لقاء، وكان له معه وصال لا يدانيه وصال، قد خفّت الروح وشفّت اذ برّح بها الشوق وبراها الهيام، فـانفصلت عـن طـين الارض الذي يـلفها ليجسمها، وعرجت الىٰ سبحات الله القدسية، وارتفعت في مدارج الشغف والوله يسيِّرها صدق الود الىٰ المودود، وتدلها بلاغة الحب علىٰ المحـبوب، حتىٰ تقرَّ بها في رحابه السنية وآفاقه العلّية، تذوب في أنوار الحقيقة، وتنهل

من معين اليقين، علىٰ حال يعجز عن نعتها الواصفون، ويقصر عن التعريف بها غوص الفكر وبلاغة الفطن.

وتمضي سدف الليل تتجلىٰ رويداً رويداً، وينتهي امد الوصال، وتعود الروح مقسورة الىٰ حبسها الجسدي، عينها وهمها في السماء لاتعير طرفاً الىٰ الدنيا، وَلا تأبه لها علىٰ أيّة حال.

لقد كان له تبتل الرهبان وانقطاعهم في ممارسة للدنيا نزيهة طيبة.

وكان له انشغال بربه لاينسيه أدنىٰ حظه من مطالب الجسد التي صيّر منها مطالب محبوبة لخالقه، مقبولة عنده، مكتوبة لديه في حسنات عبده وطاعاته، فلا أُخَراه تشغله عن هيّن حظه من دنياه، ولا يسير نصيبه من دنياه يصرفه لحظة واحدة عن اخراه.

كل دأبه لربه، وكل سعيه في طاعته، وكل نشاطه في مواضع رغبته، لذلك استخلصه لنفسه تكرمة له، واحبه حب العاشقين، وجرىٰ معه علىٰ ما نَهَجَهُ في المروي من حديثه القدسي: (**من طلبني وجدني، ومن وجدني عرفني، ومن عرفني احبني، ومن احبني عشقني ومن عشقني عشقته ومن عشقته قتلته، ومن قتلته فعليّ ديته، ومن عليّ ديتهُ فأنا ديته**).

كان يتقرب الىٰ الله بكل القربات، ويتذرع الىٰ رضاه بالذرائع المشهورة، فكانت صلاة الليل أنيسه وربيع حياته، يحتسي منها كؤوس الحب الالهي، ويكرع فيها من معين اللقاء المقدس في الحضرة العلوية، قد

تفجرت نفسه عيوناً من الخشوع والبخوع. وصبت عليه السحائب المثقلة لمعرفته بخالقه وابل الذّلّة والانكسار بين يديه، وقد أعلقته حبائل الشوق المكين، وأحتبلته اشراك الهيام الآسر، واهتز عودُه، ومادتْ أركانه، وخفق قلبه، فخرجت من بين شفتيه الذابلتين كلمات النجوىٰ مع الحبيب الأسمىٰ مهزوزة يُغالبها النشيج، قد شخص بعينيه الدامعتين الىٰ السماء، ورفع يديه المرتجفتين اليها يردّد كلمات العبودية والضراعة، ويتلو آيات المحبّة والإعظام، يسأل الله ـ بعد الدعاء لاخوانه وصحابته وأبنائه وتلامذته ـ ألاّ يتركه، ولا يتخلىٰ عنه، ولا يصرف عنه عين لطفه ورحمته، وأن يكون له في كل الأحوال رؤوفاً، وعليه في جميع الامور عطوفاً، وأن يختم له بالخير، وأن يرزقه الشهادة. ولا يلبث كذلك وامقاً لايغفو، ساهراً لايلتقي جفناه بنوم حتىٰ يحس قلبه المشوق أنْ قد تم اللقاء واكتملت فصوله.

ومن كان حاله مع الله في النوافل علىٰ هذا القدر من الخشوع والرهبة، فهو في الفرائض الواجبة في مثل هذا القدر إنْ لم يكن فوقه، وان كنّا نحسب ان لصلاة الليل وضعاً يخصُّها لأنّها شرعت وقت لقاءٍ شاعري للمحبين، حيث تغفو العيون، وتهدأ الأصوات وقد يكون لهم في هذا اللقاء مالا يكون في غيره امام الملأ لصارف الحياء، او لدفع غائلة الظن بالمبالغة أو بالرياء. وتأتي بعد ذلك تلاوة القرآن فهي في حياة الامام الشهيد أمر كبير، أولاها من همّه وعنايته بقدر ماعنده عنها من فهمه ودرايته، فهو يتلو كتاب

الله وكأن الله هو الذي يتحدّثُ اليه بكلماته ويَردِّد الآيات كأنها تهبط تواً من علياء السماء، قد استحضر المشهد علىٰ حقيقته، وردّ القضية الىٰ أصلها، ربٌّ يكلم عباده هدياً وتوجيهاً وموعظة وتذكيراً، ووحي يتنزل بالآيات الساميات، وعباد يستمعون قد اغرقوا في الخشوع والرهبة، واذا كان هذا هو اصل القضية، فليتصور الصدر الشاعر اذن نفسه امـام رب رؤوف رحـيم يتحدث اليه يكلمه ويهديه ويعظه ويذكّره، واذا أرجع الصـدر المسـتهام القضية الىٰ حالها تلك فعلام لايخشع قلبه كأنه يتقطَّع، وفيم لا يقشعر جلده كأنّه يُصعق، ويضطرب بدنه كأنه المقرور، وتخفق جوانحه كأنـه السـليم، وتخنقه العبرات، وتهتن عيناه بالدموع، وتروح به الآيات الزاكيات تطوف به علىٰ عوالم قدسية، ورحاب سنية، ومقامات عليّة، لايؤوب منها مكرهاً وعلىٰ لأيٍ الاّ حين يلحُّ عليه نداء ثقيل من وقته ومشاغله.

وأما عبادة الصدر في علمه الذي اعطاه زهرة عمره وجلَّ راحـته، فهو خير زلفاه الىٰ بارئه، وشفيعه الىٰ قربه، ووسيلته الىٰ الدرجات العلىٰ في بحبوحة الرضوان.

وكيف لايكون كذلك وقد طلع به هدىً للقلوب، ورشاداً للنفوس، وسداداً للعقول، كما لم يطلع طالع من علماء هذا الدين الحنيف علىٰ امته بمثله علماً يجسِّدُ للبشرية حقيقة الإسلام فكراً وهدياً ومنهجاً، فاستنار المدلجون، واستيقن المستصبحون، وتكشفت غشاوات الحـيرة، وتـبددت ظـلمات

المتاهة، فهب بشير الصحوة الرشيدة وما يزال يملأ ارض الاسلام بـاشراق نوره، وعزمات ثورته، وعطاء فدائه وتضحيته.

وان اسمىٰ الوان العبادة في الحياة القدسية لتلك النفس الزكية عبادة الرفض والإباء والوقوف الباسل الهمام في وجه الجفاة الطغام، عـلىٰ عـلمه بغبّ ذلك من عرامة الظالمين الذين أباهم وتحداهـم، ودعـارة الكـافرين الذين رفضهم وسرّىٰ رفضه يزلزل اركانهم ويهدُّ عروشهم **(لانـه كـان يركع لله لم يركع لاعدائه،ولانه كان يعبده وحده مخلصاً له الدين بقي مخلصاً له الدين، فلم يشرك به احداً، ولو فيحدود أدنىٰ الطمع فيه او الخوف منه، ولانه كان معتصماً بالعروة الوثقىٰ مستمسكاً بها انفصم في قلبه ماعداها من العُرىٰ أيّما انفصام، وركلالولائج من دون ربِّه ركْلَ ذويالبصائر العـارفين بشأن الوليـجة العـظمىٰ، وذلك عـنده هـو التوحيد المطلوب اعلىٰ الفروض علىٰ العباد الموحدين، وان كان فيه الاحتراق الابراهيمي الفرد في نار النمـاردة المـتجبرين، او العـذاب المحمدي الوتر في لهوات اذىٰ المشركين).**

واذا رأيت في حياة الامام الشهيد رضوان الله عليه زيارة الحسين عليه السلام رأيت امراً تعجب به وتعجب له، رأيت وشيجة بـين الصـدر وجدِّه السبط هي فرع امِّها بينه وبين الله، أسـاسها حب اللـه وخـيوطها اعظام آبائه واكبارهم، وارادةُ المشابهة بهم، واقتفاء آثارهم، ومتابعتهم، ثم

جاءت الشهادة لتقول (ان تلك الوشيجة كانت فوق ذلك، كانت عهداً يتجدّد كل ليلة جمعة من الصدر لجدِّه علىٰ ان ينُقَل الخطا الصادقة تلو الخطا الدامية الحمر في كربلاء. وأن يقفو اثر الرفض والإباء حتّىٰ منحر الفداء، لايُقرّ لضيم، ولا يعطي بيده، ولايسكت علىٰ باطل، ولا يقعد عن نصرة حق، محيطاً علمه بكل ما بعد ذلك مما كان فظيعة لجدِّه الحسين، من الحصار في فلاة الوحدة بلا ناصر، والقتل علىٰ أفجع حال، وتشويه الاعضاء وتقطيع الاوصال، وسبي النساء، وهتك العيال، وهذا ما كان للصدر علىٰ نهج جدِّه، قد عاهده فصدق العهد، ومضىٰ يجد السير يقتفي خطاه، حتىٰ لاقىٰ من كل لون من العناء شبيه ما لاقاه، ليكون بعد ذلك لقاء صراح في عالم الحقيقة والخلود بين الحسين وبضعته التي مازالت تجذبها اليه جاذبة الدم والنهج الفريد حتىٰ اكتملت بضعة فيهما معاً).

الزهد

اذا كان الزهد يعني الاعراض عن الكثير من هموم الدنيا لكثير من هموم الآخرة، والاكتفاء من حطام الدنيا بالقليل الكافي، والاقبال علىٰ الآخرة من زادها بالوفير الوافي، فأنّ هذا المعنىٰ كان تلك الحياة الطاهرة للامام الشهيد الصدر رحمه الله.

فلم تكن الدنيا من همه، ولا كانت أعراضها وسفسافها من دأبه وطلبه، علىٰ الرغم من أنّ السبيل الىٰ بهجتها وزهرتها كانت ميسورة له، والباب الىٰ لذائذها في ذراها مشرعة، فقد آثر الباقيات علىٰ الفانيات، واستأثرت به شؤون الحقيقة الدائمة علىٰ هموم الوهم الزائل. فكفأ إناء الدنيا، وطلّقها كجدّه ثلاثاً لا رجعة لها بعدها اليه الىٰ مجرد الفكرة في نفسه فضلاً عن التجسّد حقيقة في شؤون عيشه.

قلب ناظريك في حياته مذ كان يافعاً حتىٰ مماته هل ترىٰ غير إنسان هزئ عقله الكبير بالتوافه، وسخر قلبه الرزين بمعتلجات الشؤون الصغيرة، ووجد الدنيا لم تخلق الا طريقاً الىٰ البقاء الأسمىٰ، وان الحياة الفانية هذه لم تكن الاّ وسيلة الىٰ الغاية العظمىٰ، فاكتفىٰ باليسير من حلالها، مصروف الفكرة والعمل عنها الىٰ ما خُلقت له، حتىٰ إنّك لو أردت ان تستخلص من حياته ما للدنيا لألفيته دون المعشار منها علىٰ أنّه صيّره خالصاً لله، متقرباً به اليه، ليجعله أخروياً كغيره من شؤونه.

خذ إليك مثلاً من هموم الدنيا وكبائر مطالبها، البيت الفاره الأنيق

يمتلكه الانسان يملأ قلبه بهجة وسكينة، ويشُدّه الىٰ الارض، فقد بُني عليها، ويذكّره بها فقد أُنشئ منها.

انك لن تجد للإمام الشهيد الزاهد بيتاً امتلكه وأحسّ بأنّ له من الدنيا نصيباً كغيره من الناس، وأنّه يساويهم ان لم يفضلهم في اول شيء يطلبونه وأهم أمرٍ يبحثون عنه، ولا يُظنّ أنّ المال كان مانعه من ذلك فلقد بذل الباذلون أن يشتروا له بيتاً فارهاً يَسُرّه ويرضيه، فأبىٰ ذلك إباء يثبت به أن زهده حق لايشوبه باطل، صادق لاتطيف به فضلاً عن ان تخالطه مساءة الكذب. خذ اليك من شؤون الدنيا زوجة صالحة تكون في نفس زوجها في الذروة والسنام قد تملكه او تملك اكثره فتصرف الكثير من أموره بالإشارة دون الممارسة، وبالكلام واظهار الرغبة دون المباشرة، فيقضي وقته كله او جلّه في هواها، يسبح في افلاكها المتعددة.

وانظر الىٰ الامام الشهيد حيث كان مع زوجه وكأن بينه وبينها من مشاغله الرفيعة كالذي بين السماء والارض، دون ان يحجزه ذلك الفاصل بينهما عن ان يعطيها كل حقوقها، ويؤدي اليها كل مافرض لها عليه علىٰ لهفة في نفسها ان تشغل وقتها بهذا الرجل العظيم الذي قرنها الىٰ نفسه سكناً وأُنساً، فتريه الوافر من بديع الصنع في الرعاية له والعناية به، تذب عن نفسه كل عوادي الهموم، وتقوم وجاءً ووقاءً له دون عرامات الغموم.

لقد كان الامام الشهيد منصرفاً عن سكنه الدنيوي الىٰ السكن

الأُخروي مشغولاً عن (ام مرام) بالامور العظام، قيادته جهاده، أُمته، دروسه، تأليفه، زُوّاره أيامِ العافية، عُوّاده أيام المرض، فتاوىٰ مقلديه، التفكير في الامور العارضة من هنا وهناك.

وكان هذا يزيدها فخراً به واعظاماً له، وإكباراً لجلالة قدره تـذكره حين تذكره متحدثة عن بعض أموره فيطفح الاعجاب علىٰ وجهها، او يستحيل الىٰ دمعة خشوع لعظم شخصه تترقرق أو تسيل.

وكانت اذا أعوزها امر الىٰ اليمين اقسمت بحياته فله في نفسها حرمة بالغة، وله في قلبها مقام مكين.

كانت تسافر عنه لبعض شأنها الىٰ خارج العراق وقد تغيب عنه الشهور الطوال، فلا يُحسّ بأن الفراق يضنيه بل لايجد له في نفسه أثراً، فهو علىٰ وصال ما هو اسمىٰ منها واكبر وقعاً في نفسه استحواذاً عليها، ولا يأخذ من فكره أو خاطره شيء اسمه فراق الأهل أو بعد الزوج مهما طال.

وخذ اليك مثلاً من شؤون الدنيا شأن المال، وما يكون له في نفس المرء وعقله من الهمّ الدائب والفكر الواصب كيف يجمعه؟

كيف يُنمِّيه؟

أيُّ حاجاته الرغيبة يشتريها به؟

أي اموره الحبيبة يبذله فيها؟

اي مستقبل مشرق زاهر يعده له؟

اما الامام الشهيد فقد كان له مع المال يومان: يوم كان المال في منأىٰ عنه لايجده لأيسر أموره، ويفقده حتىٰ في الهيِّن من شأن طعامه ولباسه، لا يظفر منه الاّ بما يكفل له أيسر ما يستره من اللباس، واقل ما يأكـله مـن الطعام، وكان يقضي معظم شهره يستدين من البقال ليعطيه اذا طلع الهلال مالا يبقىٰ منه بعد اداء دينه إلاّ مايمكّنه مما هو أقل من الكفاف واكـثر مـن الحرمان.

ولم يكن ذلك ليؤذيه أو يحزّ في نفسه مع أنَّه لم يكن يـومها يحـمل همومه الكبيرة التي حملها بعدئذ، لكنه كان يعلم أنه علىٰ الدرب إليها ومن سلك الطريق بعزم وصدقٍ الىٰ غايته بلغها، ومن طلب المعالي فأسهر لهـا عينه، وأنصب جسمه رقىٰ اليها.

ويوم كان المال ملء كفيه يجري كالسيل اليه، فلم يكن ليخدعه عن شأنه، او يحيد به عن طريقه الذي اختطه لنفسه، الاّ ان يكون قد رفعه عن وهدة العيش المرير التي كان يقبع فيها الىٰ سطحها دون أن يفكر بالارتفاع فوق ذلك شبراً واحداً، رغم ان غيره من حوله حتىٰ من لم يسمِّهم الناس من اهل الدنيا قد ارتفعوا عنه بما يبلغ مدّ النظر وحدّ البصر.

لقد قدر لأسرته حداً محدوداً من المال يساويهم او يربوبهم قـليلاً علىٰ أيسر معيشة لواحدٍ من تلامذته لايمكنهم أن يتجاوزوه الا أن يكون قد حلّ في أيديهم مال غير الذي أعطاهموه فهم يومئذ في منجاة من صرامـة

قانونه، وفي حل من عتبه او غضبه إن أبصر عندهم شيئاً زائداً علىٰ مألوفهم.

أتته واحدة من صغيراته في احدىٰ ليالي شهر رمضان لتقول له ببراءة طافحة لقد اشترينا ياأبت (صينية بقلاوة) وهنا يصعد دم الانفعال في وجه الامام، ويضطرب نابضه المبارك، ويدعو غضبان اليه زوجه يسألها عن ذلك الأمر، فتنبئه أنه شيء أهدي اليهم، وكثير هم اولئك الذين يودُّون ان يهدوا اليهم هدية تنال رضاهم او رضا الله بالبذل لاوليائه ممن يطلبون الزُلفىٰ الىٰ ربهم سبحانه.

تدخل زوجه البيت وفي يدها شيء من التفّاح اشترته بعد مرورها بالسوق، ويرمقها الامام الشهيد بنظرة عتب قاسٍ ليقول لها بعدها: ماهذا؟ الم تعلمي أنّه لايدخل بيتنا في اليوم زوجان من الفاكهة وعندنا الساعة من (البطيخ) مايكفي او يزيد؟

وتعتذر زوجه بانها تعلم ذلك ولكن صغارها المرضىٰ اوحوا الىٰ نفسها أن تشتري لهم من التّفاح ماعسىٰ ان يعينهم علىٰ الأوبة الىٰ العافية.

كان خادمهم يمضي الىٰ السوق في حاجاتهم ووصيتهم ترن في اذنه (اشترِ لنا من الأشياء اوساطها).

وقد اوصوْهُ أن يشتري لهم مرضعة (زجاجة رضاعة) فذهب الىٰ السوق تصحبه تلك الوصية، فوجد زجاجة قد رضعت من قبل فظنها من ذلك الوسط المطلوب فاشتراها مفصحاً بذلك عمّا الفه من وصيتهم ومن

حال عيشهم، وما ألفُوه هم منه مما يشتريه لهم.

كانت لدىٰ زوجه ماكنة خياطة قديمة تحرك باليد فأحبت ان تستبدل بها غيرها من أيسر الجديد المستحدث، ولكن زوجها الامام يأبىٰ مبيناً لها أن مهم الامر الذي تقوم به هذه تقوم به تلك فليس ثمة داع معتد به يدعو الىٰ بذل المال فيها.

كانت تشتكي من بعض العناء في أحضار اللبن الممزوج فرغبت اليه ان تشتري من هذه الآلة الجديدة التي تمزجه بيسر، بقيمة لاترتفع الىٰ الدينار الواحد، فأبىٰ الامام بذل هذا الثمن في شيء قد يكون مما تحتويه بيوت الاغنياء، وأصر علىٰ زوجه ان تبقىٰ مع طريقتها القديمة في اعداد اللبن.

كان يتأبىٰ أن يشتري (الثلاجة) وهي لم تكن يومئذ من مختصات الموسرين، بل كان يملكها حتىٰ اوساط الناس ان لم نقل أدناهم في معيشتهم، رغم ان بيته الزوجي كان يجد مسيس الحاجة اليها، وظل هكذا خالي البيت منها مع هذا الالحاح البالغ من معارفه واصحابه علىٰ ان يسرّ اسرته بها، وليس يعوزه المال الذي يشتريها به، ويبقىٰ الامام متأبيا زاهداً فيها، حتىٰ كتب كتاب (المعالم الجديدة) فأهداه إلىٰ كلية (أصول الدين) فرأىٰ المشرفون عليها ساعتئذ أن يُهدوا اليه ثلاجة صغيرة يمنعه الخُلُقُ الرفيع أن يردَّها فأوصدوا علىٰ اهل الامام باباً من العناء، وأشرعوا في وجوههم باباً الىٰ بعض الراحة.

وتظل هذه الثلاجة تكدح في بيت الامام أربعة عشر عاماً حتىٰ خارت قواها، وضعفت عن أداء دورها فرغبت اليه أهله في تغييرها لضعفها وصغرها وبالغ حاجتهم الىٰ اكبر منها، فأبىٰ اباءً شديداً أن يجيبهم الىٰ مايطلبون حتىٰ عرف الأمر احد تلامذته فاشترىٰ لاسرة استاذه الزاهد ثلاجة جديدة.

لم تكن تدخل بيت الامام الشهيد هذه الانواع الجديدة من (المهد) مايدخل الكثير من بيوت اقل الناس في ذات اليد، وكان يأمر ان يُشترىٰ لمولوده الجديد مهد من النوع القديم الذي تزدريه أعين الناس، حتىٰ لوليده جعفر الذي أحسّ له اهل بيته وهو يدخل دنياهم بالسرور الوافر، فهو الغلام الوحيد، وكانت تلك القضبان الحديدية المرتبة علىٰ هيئة المهد هي حضن ذلك الوليد السعيد بعد حضن امه.

كان مألوف طعامه اذا أصبح الخبزَ والحليب، ومألوفه اذا أمسىٰ الخبز و(السكنجبيل)، ومألوفه بينهما الخبز واللبن، قد يصحبهما ظهراً وعشاءً (بالخس) ايسر طعام، واخف ادام، فما بُسط له الخوان الملوَّن، وما اقيمت له المائدة العامرة، وما وضعت بين يديه فنون الطعام واصنافه يأكل منها ما يشاء متلذذاً، ويصيب منها ما يريد متنعماً شرهاً الىٰ ذلك، راغباً فيه، طالباً أياه، باحثاً عنه.

كان له قباءان اعتقب عليهما ـ وهو يلبسهما ـ اثنا عشر عاماً لم

يستبدل بهما غيرهما، واظنه نال الشهادة وهو يرتدي احدهما، عازفة نفسه عن تخيّر الالبسة كما عزفت عن تخيّر الأطعمة.

كان كثير من الهدايا التي تهدىٰ اليهم تبوء برفضهم المشفوع يالعتب اذ يقال لاصحابها: لِمَ لم تذهبوا بها الىٰ الفقراء، وذوي الحاجة من المساكين فذلك ادعىٰ الىٰ رضا ربكم؟ ولم قصدتمونا بها ونحن في غنىً عنها؟

وكان البعض منها يقبل ليتحول الىٰ منْ هو بحاجة اليه يذهبون به اليه بأنفسهم.

لقد زهد رضوان الله عليه في كلٍّ مظاهر الدنيا من معرفته بحقيقتها وتساميه بفضائله عليها، وطلبه الباقيات عند ربِّه، شأن آبائه الميامين، وهو حين يكتب رائعته الفريدة (فلسفتنا) لا يثور في نفسه هاجس الدنيا العريضة بطلب الشهرة الواسعة ليجعل ذلك الزاهد المترفع لهيف النفس الىٰ ان يرىٰ اسمه قد سار مع كتابه الفريد في الارض تلهج به الألسنة، وتتحدث عن صاحبه المحافل، لقد اراد ان يصدر الكتاب باسم جماعة العلماء زهداً في الشهرة، وايثاراً لغيره علىٰ نفسه، وتقديماً للمصلحة العامة علىٰ المصلحة الخاصة، ولولا رغبة البعض في تلك الجماعة في التغيير في الكتاب مما يضعف مضامينه ويسلبه الكثير من جدواه، لكان ما اراده الصدر المتسامي قد حصل.

ويتسامىٰ الزهد الصدري ليبلغ ذروة لا يرقىٰ اليها طائر الطموح تثير

العجب بها ومنها إثارة محيِّرة حين نراه في محنة الحصار، وضيق الخناق حيث تسد في وجهه السبل الىٰ الحياة كما يحيىٰ فيها الناس، وتمنع يده من ان تمتد الىٰ حقها الطبيعي في مادة العيش، وتمنع عنه الايدي ان تعطيه ذلك الحق.

في تلك المحنة الحازبة. كانت تصل اليه بلطائف الحيل هدايا الاولياء من الاموال والمساعدات، وكان يرفضها متذكراً الايام الاخيرة لحياة أبيه حين غادر الدنيا ولم يترك في بيته شيئاً من زخرف الحياة حتىٰ مايكفي لعشاء أهل بيته في ذلك اليوم الذي رحل فيه.

ولأضرب لك مثلاً واحداً قد يغنيك عن الكثير من كلامي عن زهد هذا الامام العظيم، ولا قم لك شاهداً واحداً يدلك علىٰ الكثير من امثاله مما يرسم لك المنهج الذي سار عليه ذلك الامام في حياته، منهج العزوف عن الدنيا.

لقد اوصىٰ له احد معارفه (حال الموت) بشيء من ثلثه وكان (سيّارة)، عسىٰ ان تكون له بعد موته صدقة جارية حين يستعين بها الامام علىٰ قطع المسافات التي تفصله بين بيته ودرسه، او بيته وكربلاء ليالي الجُمَع، او بيته وكثير من المواضع الأُخرىٰ التي يقصدها يؤدّي فيها حقوق الله أو حقوق اخوانه المؤمنين، وتدخل (السيارة) بيت الامام دون ان يطرف لها طارف الحبور، او يهيج لمرآها داعي البهجة يزيد من سروره وينقص من غمّه، فلمطالب الدنيا هذه مثل هذا الأثر عند غيره لا عنده.

تدخل السيارة بيته، لتكفن فيه كما كفنت في نفسه تنتظر من يبذل لها

حقّها من الثمن ليتحول بعد ذلك الىٰ الأيدي الخالية تملأ بها بطوناً ساغبة لدىٰ الفقراء من تلامذته وسواهم، والىٰ بعض هموم الجهاد ومواضع حاجاته، مع انّ غيره من اكابر العلماء ملكوا (السيارة)، وأفادوا منها في شؤونهم، واستعانوا بها علىٰ قضاء حوائجهم. لكنها النفس العظيمة تستصغر أعراض الدنيا، ولكنه القلب الكبير يستهين بكل زخارف الحياة.

اهدىٰ اليه احد مريديه من الكويت عباءة نفيسة، وحين يعرضها عليه رسول مهديها يأخذها الصدر بيده ويعرضها علىٰ احد الحاضرين في مجلسه ممن يبيع مثلها طالباً منه ان يقدِّر ثمنها، وكم تعدل من مثل ما يلبس هو (الصدر) من عباءة.

فأجابه الرجل أنها ثمينة وتعدل الكثير من مثل عباءته، فعرض عليه الصدر الزاهد ان يعاوضها بذلك المقدار الذي يعتقد أنها تعدلهُ يسلِّمه بيده الىٰ المحتاجين من الطلاب.

وهكذا كانت سجية الترفع عن الدنيا حاجزاً للصدر عن لبس عباءة المترفين، وكانت الأبوة الحانية والولاية الرؤوم قائدة له الىٰ إيثار ابنائه وتلامذته علىٰ نفسه، وبذل مافي يده من أجلهم.

والصدر المدرك لحقيقة الحياة وسيرة الانسان فيها، وما يستنزله منها من مواد الفتنة، وما يصلحه فيها من الاعتصام بذمام الخلق الرفيع، والزهد في اعراضها وزبرجها. هذا الصدر رأىٰ ان التعلّق بالدنيا حتىٰ الحلال منها هو مدعاة العظماء المتسامين الىٰ الهبوط، ومزلّة ذوي الاستقامة،

ومـدحضة أهـل الرشـد والسـداد، كأن حب الدنـيا والصـلاح نـقيضان لايجتمعان... وعشقها وعشق الله ضدان لا يلتقيان.

ويقرأ الصدر في آخر أيامه في «مسجد الطوسي» سطور ملحمة صدرية تكشف عن عمق نظرهِ الىٰ الواقع، واستشرافه للـمستقبل، ورؤيته الدقيقة التي تسبر صفحات الغيب لتطلع منها بشيء من وقائع الآتي حيث كمين حب الدنيا يترصد السائرين علىٰ درب الحـياة مـع النزعات والرغبات، فاذا به في غفلة منهم عن عصمة الترفع والزهد في ميعة ساهية ترتخي فيها ايديهم عن زمام الحصانة قد وقعوا في كبول الهوىٰ السادر في المتاهات، فاذا بهم قد بـاعوا بـالثمن البـخس مجـد انسانيتهم وسُمُوَّها، وخلود آخرتهم وأنسها المتصل الممتد في مقعد الصدق.

لقد ذكّرهم الصدر بالدنيا التي عشقها هارون فغازلته وفتنته حتىٰ اعطاها القياد، وذكّرهم بدنياهم التي هي مجموعة من الاوهام حيث لاتعني الصلابة الظاهرة فيها حقيقة الاجتياز للامتحان العسير في سفساف الدنيا وزخرفها، وحذّرهم الصدر من اقبال الدنيا الفاتنة حيث يهتز الواهـنون، وتخور قواهم التي لم يشذبوها من داء الدنيا، ولم يحرقوها بنار الزهد لتخرج من مصهر تجلّدهم ازاء المطامع نقية كالتبر خلّصه الاحراق من أَشوابه.

لقد عرفهم الصدر الزاهد أنهم لم تعرض عليهم دنيا هارون الرشيد التي استزلته بخوادعها ليعرفوا حقيقة الفاصل بينهم وبـينها حـين تكـون بهارج الدنيا هي المحكّ، ويكون بريقها المضلّ هو الابتلاء.

لقد قرأ الصدر من واقع التاريخ وهدي القرآن حديث الهداة الميامين أنّ الزهد في الدنيا هو الذمام المنجي، وانّ طريقه المحفوفة بالمكاره يـقهرها صبر العزائم المؤمنة هي السبيل الىٰ الخلاص من فتنة الغي وسـوء العـاقبة وعذاب السعير، وان الذين صبروا عنها ظفروا براحتها الحقيقية وخلّدهم زهدهم لحناً علىٰ فم التاريخ.

اما الذين وهنوا فيها، واخلدوا الىٰ فـتنتها فـقد احـتبلتهم اسرىٰ هواها، ثم رمتهم الىٰ مهاوي السقوط أشقياء مخزيين.

ولا يكتفي الزاهد بتلاوة آيات الزهد من واقع رفيع متسامٍ هو واقع الأسوة الحسنة للصالحين، بل هو يتلو من أيات الوصية بتلك الخصلة العالية علىٰ مسامع حواريّيه وتلامذته، الذين يرىٰ فيهم الناس أنهم أتباع القدوة المترفعة والقائد المتسامي يحضّهم بها علىٰ سجية المترفعين، ويزجرهم عن دنيا المترفين.

وصلت الىٰ بيته هدية مترفة (وسيلة من وسائل الزينة) من لبنان الىٰ احد تلامذته المترفين ضلت الطريق الىٰ مقصودها فاستقرت في بيت الصدر عند الباب تنتظر مجيء صاحبها اليها، وقطّب الصدر جبينه الكريم بعد أنْ انقبض قلبه من رؤيتها، ولم تبق في بيته الا أياماً كانت فيها كالثقل الجسيم يرزح تحته قلبه الكريم.

وجسّد الصدر امتعاضه وعتبه الغليظ علىٰ طالبها بأمره الحـازم له أن ينقلها من بيته سريعاً،لانها ارمضته وسلّطت علىٰ صدره سوط الأذىٰ والتبريح.

التواضع

التواضع في حياة الامام الشهيد قبس ساطع من ضياء الخلق القرآني، وشعلة وهاجة من نور التربية الالهية العظيمة.

كان التواضع في حياته معلماً بارزاً من معالم شخصيته الفذة استقاه من روح الذكر الحكيم، واشتقه من آيات الكتاب المباركات، وقد وجدته مجموعة آفاقه الرحيبة المشرقة التي طلعت علينا بها حياة الامام القدسية في كلمتين من القرآن:﴿**اذلة علىٰ المؤمنين**﴾.﴿**واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**﴾.

كان الذين يزورونه، ويستمعون اليه، ويتفهمون منه، يعجبون اول مايعجبون بتواضعه، وخفض جناحه، وبشاشته، واشراق محيّاه، وطيب لقائه، وبعد ان يردوا غيره وينهلوا منه مايبلّ ظمأهم، ويطفئ غلتهم، ينقلبون عنه ليروا منه في صدورهم عنه مثل ما رأوا في ورودهم عليه. يقوم لهم اذا أقبلوا عليه ببسمة ساحرة، وبِشْرٍ طافح، واقبال آسر، يأخذن بمجامع قلوبهم، ويطرن بنفوسهم شعاعاً في عالم الحيرة والذهول، واشدهم تأثراً من كانوا قد رأوا غيره فرأوا منه أقل القليل مما لا يبلغ معشار مايرونه منه، فاذا سأل سائلهم أدار طرفه اليه مصحوباً ببسمة وادعة، وأصغىٰ اليه اصغاء سمحاً، حتىٰ اذا أتم كلامه راح يجيبه علىٰ قدر فهمه لا برماً بسؤاله انىٰ كان، ولا سئماً من الجواب عنه، فلا يخرج هذا من عنده الا بقلب مأخوذ وشعور مغلوب وعاطفة مشبوبة مشدودة لهذا الامام المتواضع. وتكون هذه الخلة

من خلق هذا الامام صيحة في أعماقه، تذكره بحقيقة دور التواضع في حياة القائد، وتنبهُ الىٰ القيادات الساقطة التي يراها من حوله بني بناؤها علىٰ التكبر، وقام كيانها علىٰ احتقار الناس وازدرائهم، والتعالي عليهم، والانصراف عنهم.

وهذا التواضع الذي قد يصح أن نسميه (التواضع القيادي) يصحبه تواضع مثله وعلىٰ مستواه لانهما من معدن واحد هو «التواضع العلمي» فهو في دروسه وتآليفه يفيض تواضعاً وسماحة، لايذكر أساتذته الاّ بأرفع النعوت مثل «سيدنا الاستاذ»، ولا يذكر آراءهم، ولو كان بطلانها لديه واضحاً، إلا بأحسن مايريدون لها ان تذكر، ويعرضها كما يحبون لها أن تعرض، بل قد يعرضها ويؤولها بوجوه حبيبة لم يقصدوها، ثم يتصدىٰ لها بعد ذلك ينفي عنها وجه الصواب بأدب جم، وخلق عظيم. بل إنّ تواضعه لروح الفكر تجعله يتواضع لكل فكرة مهما كانت غير صحيحة عنده، ويبديها، اذا أراد نقدها، بخير وجوهها، ويبرزها علىٰ خير محاسنها ومزاياها، وقد يمتدحها في أثناء حديثه عنها كما في عرضه (للماركسية) ثم ينحدر بها بتوأَدة وأناة وسماحة بالغة ليوصلها الىٰ قاع البطلان ثم ينصرف عنها كما أقبل عليها..

وفي ساحة درسه كان تواضعه العلمي للافكار التي يعرضها لأستاذه وسواه من العلماء وتواضعه لتلاميذه شيئاً عجباً.

كان ينصت لكل اشكال يطرحه تلامذته ويردّه ولو كان خارجاً عن روح بحثه، ولا يردُّ احداً منهم يناقشه ردّاً قاسياً، ولا يشتطّ في جوابه، ولا يغلظ عليه حتىٰ ولو أساء ملاددته ومعارضته.

وان أنس فلن انسىٰ مشهداً علوياً اطلت علينا به روح التـواضـع عنده ودليله الىٰ سواها من الكثير الوفير من الوان تواضعه وخفض جناحه ـ ذلك هو انحناؤه وهو الذي انحنىٰ له أعزُّ الرؤوس، ولثم انامله أعزّ الشفاه علىٰ ايدي اساتذته يقبلها، ليكون ذلك آيةً اخرىٰ يتنزل بها مـن عـلياء الخلق الرفيع وحي التواضع تبهر بـاشراقـها انـظار المـبصرين، وتـذهب بقلوبهم كل مذهب في دنيا الحيرة والاعجاب.

لقد كان تواضعه فريداً ولابِدْعَ ان يكون كذلك فهو شِنجة اشتقت من الخلق الالهي الذي ترشّفه الامام من كأس القرآن الرويّـة. فـفاض في انحائه يغمرها، وتشمم عرفه العابق من روضه الفيّاح فانساب ذاك الشميم في مشاعره يعطّرها.

كلمتان في القرآن كانتا مجموع ماعند الامـام الشهـيد مـن المـدىٰ الفسيح الواسع من سجية التواضع، خفض جناحه للاتباع وهو التواضـع (القيادي)، والذلة علىٰ المؤمنين وهو التواضع (للأقران) ومن دونهم، وأول ألوانه في حياته هو تواضعه العلمي لأساتذته وتلاميذه.

وقد ينصرف عن بالي كل شيء من خلق التواضع عند الامام لكنه

لن ينصرف ذلك اللون الذي لم اسمع به من قبل أن أجدَه عند امامنا الشهيد، هو تواضعه الكبير للمرأة المؤمنة التي كان يحبها ويحترمها ويوصي بها، ويجدها في نفسه في الذروة العالية، وقد يشاركه في هذا سواه. أمّا ما لم اجد أنا من يشاركه فيه فهو قيامه للمرأة اذا دخلت عليه وقيامه لها اذا انصرفت عنه تماماً كما يفعل مع اخوانها الرجال المؤمنين.

حدثت السيدة ام تقىٰ قائلة:ـ دخلت عليه أزوره مع احدىٰ اخواتي المؤمنات بعد خروجه من المعتقل قبل اعتقاله اليتيم، فاستقبلنا بمحضر والدته واخته قائماً لنا علىٰ هيئته التي يصفونه بها عند استقباله للرجال، وبعد ان حدثنا حديث قلبه وروحه وآن لنا أن ننصرف عنه قام لنا، وبقي قائماً حتىٰ انصرفنا عنه بعقلين مأخوذين كأنما ضلّا سجيّة التعقل، وقلبين دهشين كأنما كانا في مشهد مهيب، وتنطلق صاحبتي بعد هذا الموقف تقرأ سطور صفحته الشريفة علىٰ مسامع الملأ ممن لا تعرفهم يقدٍّرون المرأة ويكبرونها في انفسهم وتقول لهم (انه الصدر العظيم يحترم المرأة الىٰ الحد الذي يقيمه لها اذا أقبلت عليه او اذا انصرفت عنه فأنّىٰ تؤفكون).

كان (رض) قليلاً ما يجيب دعوة الحضور ببركته في افراح الزواج ليقلل من شأن الاهتمام بها، ويوحي وحياً صامتاً بعدم الافراط فيها، او الخروج بها عن مرغوب الاسلام ومطلوبه.

اما حين يدعوه خادمه لمثل هذا الامر فانه يستجيب لا ليقضي بعض

الوقت هناك كما يفعل في النادر من حضوره في هذا الأمر ساعة، بل هو اليوم يمكث حتىٰ يتعشىٰ ليملأ نفس اخيه المؤمن بالغبطة والسعادة ثم ينصرف عنه بخالص الدعاء وصادق الرجاء.

انه التواضع القرآني الصادق الجامع، كان صادقاً فلم تكذبه الايام والمشاهد، وكان جامعاً فلم تفته حالة او حالات فاتت غيره، وكان اول مافتح له باب القداسة في النفوس هو هذا الخلق الكريم فما رأيت امرءاً رآه واجتمع به لا يذكر له سجية التواضع، ولا يمجده بها، ويطريه لها اطراءً لم يفتح فمه به لاحدٍ غيره من قبل، معتبراً ذلك المهم من سجايا الامامة الحقة، والطليعة من شمائل القيادة الرائدة.

الحلم

اذا كان الحلم ان تعفو عمن ظلمك، ولا تغضب علىٰ من اساء اليك، فهذا أمر كان له في الحياة الخلقية للامام الشهيد وجود زاهر، وحضور باهر، فلقد كان مما حبا الله به شهيدنا الكبير مما يختص به العظماء من عباده (الظلامة).

فعاش رضوان الله عليه مظلوماً. لم يأمن قلبه الوادع البريء غائلة العدوان عليه، ولم تنج ساحته الطاهرة المقدسة من سطوات الظلم الفادح، ولم يسلم خاطره المبارك مما يكدِّر صفوه ويرمضه من حراب الحاقدين وسهام الواجدين، وكان يرحمه الله مع كل ذلك الاعتداء مصداق قول الشاعر في وصف الائمة الهداة وذكر سجاياهم.

اذا وتروا مدوا الىٰ اهل وِتْرِهم   اكفاً عن الاوتار منقبضاتِ

ولعل مثالاً واحداً من حياته البهية يكشف عن هذه السجية، فلقد مرت علىٰ الامام الشهيد مرحلتان من الظلم في نطاق الحوزة العلمية في النجف وخارجها، سببها الجهل أو العناد في الاولىٰ، والغضب والانفعال في الثانية.

لقد صبت عليه سحائب العداء وابلها أيام بزوغ فجره، وتألق أنواره من الجاهلين الذين لايفهمون الاسلام علىٰ واقعه او لايريدون ان يفهموه علىٰ ذلك، فصعقهم ماطلع به الشهيد من حقيقة الاسلام الجديدة، وما يدعو اليه من ريادة الاسلام، وحاكمية القرآن، ومقاومة الطاغوت، وعودة الحكم

الىٰ اهله الحقيقيين، فأزبدوا وأرعدوا، ونجمت ناجمة غـيظهم وبـغضائهم، وائتلف علىٰ الامام الشهيد منهم موج الكراهية من كل صوب فاذا هو سيل هادر واجهه بقلب همام كالطود راسخاً لا يتزعزع، اشم لا ينحني ولا يلين، وظل هو معهم كالشمس لاتعبأ بالسحاب يتكثف مـن حـولها ليـحجبها.

(وطفقت مسيرة النور التي نـابذوه عـليها تهـدي عـاشيات النفوس والافكار، لايضيرها صـياح الديـاجي ولا المـدلجين. فـلا تضعف، ولا تتنكّب، ولا تداجي، ولا تداهن، حتىٰ هـدت حـقيقتها الدامغة جمحات العداء، وأَسَر وضوحها وصـدقها عـناد الجـاهلين، فسجدوا خشعاً لقوة الحقِّ القاهرة، وأنابوا مذعنين امام سطوة الحقيقة الباهرة، فشملتهم السماحة الصدرية الواسعة، وعمهم العفو مـن ذي خلّةٍ ربانية، هـي أنّـه سريـع الىٰ العـفو والرضىٰ، حـافدٌ الىٰ الحـلم والغفران).

ثم جاءت مرحلة كان أصل العداء فـيها للامـام الشهـيد الغـضب والانفعال من أناس يعرفونه ولا يجهلونه، وكانوا قبلها يحبونه ولا يكرهونه، فلما خالفهم الىٰ مالا يشتهون أعنقت منهم نحوه عـادية السب والتـوهين، وجبهته قوارع السوء، ونطقت أُلسنة السخط بالانتقاص، فاشتجرت عليه رماح الإيذاء، وتعانقت حوله أسنَّة التبريح.

وكان الامام هنا علىٰ شأنه مع كل الظلم الذي يقع عليه، والحـيف

الذي يلحق به، حلماً واسعاً، وعفواً شاملاً، وصفحاً جميلاً.

واعجب اذا شئت من حلمه حين يدخل عليه احد تلامذته صنيعة تلك المرحلة المزبورة، ليسمعه بذيء القول في ذمه، وقبيح الكلام في انتقاصه والحطّ من قدره، فيصغي الامام له ويصمت علىٰ بسمة ذابلة تداعب شفتيه، ثم يرفع طرفه الوادع الىٰ شاتمه ليدعو له ولاخوانه من ورائه بالرشد والصلاح، ومعرفة السداد والصواب.

فلم يزعق فيه لسوء ادبه الجاهر، ولم يغضب عليه لجرأته الفاضحة، ولم يسمعه كلمة رادعة وقد سمع منه فظيعاً، ولم تنبس شفتاه الطاهرتان بغير الدعاء له ولمن دفعوه لذلك الامر، وينقلب عنه تلميذه بالصفح والستر كأن لم يكن قد بدر منه ما بدر.

بلغ سمعه الشريف ان احد العلماء ابن احد المراجع الكبار يقصده بسهام السوء، ويرمي ساحته الطاهرة بها من حسد حانق ظالم، ولا يكتفي الحلم الصدري في هذا الامر بالسكوت والإغضاء، بل يدفعه حلمه الرفيع وحكمته المتعالية الىٰ أرفع المواقف وأسماها، فيوصي احد تلاميذه ممن لهم علاقة بحاسده ان يتلطّف معه في اشعاره بانّ الصدر يحبه ويذكره بخير، عسىٰ ان يكون ذلك عوناً علىٰ قطع لسانه، وقمع غائلة فتنةٍ يريد اثارتها في وسط الحوزة وحصنها المنيع (المرجعية)، واضعاف الخط الاصيل فيها، وتوهين رائده الفذّ، وهكذا كان .

وتبلغ الحكمة الصدرية غايتها، وتحقّق هدفها في اصلاح ذات البين في الحوزة والذي هو اعظم الاصلاح.

ما اعجب شأنه في حلمه حين يُطل من النافذة علىٰ آسريه في بيته عند الحصار فيراهم في حرّ الهجير قد أحزبهم الظمأ الشديد، فلا يملك نفسه من التأثر العميق لتنهد من اعماق صدره الطاهر الآهات اللاهبة لهؤلاء المساكين الذين يعانون في اطواق ظلمهم مثلما يعاني مظلومهم، ولهم بعد ذلك جزاء الظالمين، وعذاب المجرمين.

ويرق لهم الصدر الرحيم، ويأمر باعطائهم الماء البارد اغاثة لهم، وتعريفاً بالخلق الاسلامي الرفيع، ونبل ذوي الفضائل العالية، وانّ من يحاصرونه ليس الا الأب الرؤوف، والقائد العطوف، والانسان المتعالي علىٰ دواعي النفوس، واضغان الصدور، والمجازاة بالمثل، شأن اجداده الطاهرين.

وينقل له ثقاته ان احد تلاميذه انحرف عن خطّه، وراح يتجنىٰ عليه، ويظلمه، ويقذع له في السب والقدح، وكان الناقل يظنّ أنّ الصدر سوف تبدر منه الحسرة والآهة والتظلم والدعاء علىٰ ظالمه، لكن الذي طفح به معدنه الكريم هو مقالة التقي الحليم (انني مازلت اعتقد بعدالة هذا الشيخ، وإن ما يصدر منه ضدي ناشئ من خطأ في اعتقاده، وليس من عدم مبالاته بالدّين) فمن هو غير الصدر حين يجد لعداوة كارهيه ونابزيه، باللقب السيّئ ـ محملاً في الخير يحملها عليه، ويوجهها وجهة الخير، وان بدت كريهة

مؤذية؟

دخل عليه احد تلاميذه مودعاً له عند ارادة (تسفيره) وكان هذا التلميذ ممن لفهم تيار الحقد علىٰ خط الصدر المظلوم فبدر منه مابدا من التجنّي والعدوان، وقد اراد بالوداع ان يتوب الىٰ الصدر مما بدا منه ليهبه اياه فيظفر بالنجاة من وزر الظلم لاستاذه.

فماذا وجد ذلك التلميذ المتجنّي عند استاذه المظلوم؟ لقد وجد ذلك التلميذ صدراً رحباً وسع سقطات المتجنين، وامتد حتىٰ حوىٰ الفضاء الفسيح للصفح والستر، فلم يعد فيه شيء من نقمة الناقمين، او غضب الذين يثأرون لانفسهم من ظالميهم بالسطوات او بالاعراض، لقد ضمّه الصدر اليه واعتنقه باكياً تنهمر دموعه اسىً وحسرة لهذا الذي جاءه معتذراً مودعاً وقد بدت عليه علائم الانكسار للندم، ومظهر الاذىٰ لما يحل به من امر (التسفير) والابعاد عن النجف.

واعجب له حين يقدح فيه وفي اهل بيته قادح ممن يُحسَبون من مريديه، ويسمع عنه فيه وفيهم كلاماً غير ذي سداد ولا رأفة، يثير الحفيظة، ويؤجج سعار الغيظ، ويتأبىٰ الامام الحليم ان يكتفي بالسكوت الغامر الساتر، فتنقله اقدام الحلم العجيب الىٰ شاتمه يعوده في دائه يدعو له بالشفاء، ويرجو له سرعة البلول من دائه.

وليس يفوتني أن اذكر أن الحلم الصدري الكبير قد تعدىٰ طوره

المألوف منه وهو طور بعيد ليرقىٰ الىٰ طور عجيب هو حلمه عن عبيد الطاغوت الذين أساؤوا اليه، وآذوه، وكبَّلوا معصميه بالأصفاد، فحين يقفون ازاءه بعد اعتقاله البكر قبل ان يغادر سجنهم واغلالهم معتذرين كذباً ورياءً يقولها هو حقاً وصدقاً: ـ (اذا أخطأ الابناء فعقوا وقصّروا، فعلىٰ الآباءِ أن يصفحوا ويغفروا).

الـوفـاء والإخـلاص

اضاءت حياة الامام الشهيد بسجاياها النبوية الزاهـرة، وأشرقت بشمائلها القرآنية الزكية، فكانت حياة مثالية تتلألأ كـالشمس في الافـق، بعيدة بعيدة لعلوِّها وتساميها، قريبة قريبة بضيائها وعطائها، يستنير بهـا الخابطون في الديماس، ويتأسىٰ بها من يرجون الله، ويقتدي بها من يرومون ذرىٰ العلياء، ونيل السماء.

لقد كانت المحامد الشخصية والفضائل الخلقية لامامنا الشهيد كأفراس رهان يتنافسْنَ في المضمار، ويتبارين في ساحة المغالبة، كلٌّ تطلب فلجها، وكل تطمح جاهدة أنْ تكون هي الظافرة، لكنهن بلغن الغاية في وقت واحد، فكانت السبقة لهن جميعاً والجائزة بينهن سواء.

اذا نظرت اليه من وجه فضيلة واحدة رأيتها وكأنها يـتيمة الدهر عزت علىٰ الند والنظير، فاذا نظرت الىٰ اختها ألفيتها وكأنهـا الاعز الابعد، وهكذا حتىٰ يأخذك الاعياء، ويـرتدّ طـرفك حسـيراً لتعرف ان خصاله في الحسن والبهاء سيان، وان فـضائله في السـمو والاشراق علىٰ حدٍّ واحد.

هذا هو الصدر في اعظم خصلة انسانية، واسمىٰ فضيلة بشرية، تلك الوفاء والاخلاص، وهي سجية احسبها كانت في الاصل ملائكية ثم أباحها الله لعباده، وأذن لهم ان يتصفوا بها اذا شاؤوا كمالهم، وأن يتحلّوْا بهـا اذا راموا أن يبلغوا غاية جلالهم وعظمتهم، وقليل ماهم اولئك الذين قدّروها حق قدرها، فطاروا علىٰ جناحيها الىٰ مصافِّ الملائكة، وكثير هـم اولئك

الذين اخلدوا الىٰ الأرض بتركها فلم يرتفعوا عن مواطئهم شبراً واحداً.

لقد وعىٰ الامام الشهيد حقيقة الوفاء والاخلاص من عشقه الالهي، وتعلمها ودَرَبَ عليها في رحاب هذا العشق الفريد.

لقد عرف ربه فأحبّه وأخلص له غاية الاخلاص ووفىٰ له كلّ الوفاء، فما غدر بطاعته تاركاً لها، أو مقصراً فيها، ولا تلون له في مسيرته، ولا اتخذ الانداد من الأهواء والرغبات يحبها مع هواه ورغبته او من دونهما، ولا ضعفت به نفسه الوفية الصادقة عن تقحم كل الصعاب، وتحمل كل الاتعاب طلباً لرضىٰ من آثره بالحب علىٰ سواه، وزلفة الىٰ من عشقه دون ماعداه.

ومافتئ هذا دأبه وفياً مخلصاً حتىٰ بلغ به ابتلاء حبيبه له في خصيصتي وفائه واخلاصه الىٰ الحد الذي طالما خار عنده الصدق في الاخلاص المكذوب، وهوّمت سكرىٰ عنده عزيمة الوفاء المزعوم. انه الوقوف علىٰ شفير المنية قد كشرت عن انيابها فيه مكربة القتل الفظيع، وحازبة الموت المريع، باسياف الجلّادين وبواتر الحاقدين.

وبقي الصدر ازاء الشفير وفياً فلم يخسْ أو ينكل، مخلصاً فلم يكذب في محبته او عشقه، وهوىٰ صريع المحبة يزينها الوفاء الوتر، قتيل العشق ينير ارجاءه الاخلاص الفرد.

وكان الوفي المخلص مع ربه وفياً مخلصاً مع عباده، وكان وفياً مخلصاً مع علمه، فأتقنه وحقّقه وصفّاه ثم وهبه واعطاه.

كان وفياً مخلصاً مع تلامذته وابنائه فصدقهم فيما اعطاهم، واخلص لهم في عطائه، ومحض لهم النصح لم يكذبهم فيه، وكان وفياً مخلصاً مع أمته التي اعطته قيادها وائتمنته علىٰ مصيرها، فتحمل لها ما تتدكدك له الجبال من الخطوب، ويذوب له الصخر الأصم من لظىٰ الشجو والشجن، وقال كلمته الخالدة: (**اني اؤكِّد لك ياشعب آبائي واجدادي أني معك وفي اعماقك، ولن اتخلىٰ عنك في محنتك، وسأبذل آخر قطرة من دمي في سبيل الله ومن اجلك. أنا اعلن لكم يا ابنائي انني صممت علىٰ الشهادة، ولعل هذا آخر ما تسمعونه مني، وان ابواب الجنة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء حتىٰ يكتب الله لكم النصر**).

الإمام وأهل بيته

كان في بيت الامام الشهيد ممن لهم عليه حق الرعاية والعناية، وله علىٰ جُلّهم حق الاشراف والولاية ـ امه وأخته وزوجه واولاده.

وكانت له معهم مسيرة فريدة من السلوك، ومنهج لايماثل من الهدىٰ والرشاد، وطور عجيب من المحبة والحرص والوفاء.

كانت أمّهُ تنعم منه بفيض برٍّ واصب النبع، وتهنأُ منه بدفء حُبٍّ واجلال لايعتوره فتور، كان يغدف عليها ظل الاحترام البالغ فيقر عينها، ويكثف حولها ألوان الخضوع والنجوع وخفض الجناح فيثلج صدرها، ويملأ قلبها بمعاني الحبِّ له، والاعجاب بخلاله السامية، فينهل فمها بكلمات الحمد والثناء والشكر لرب وهبها اياه، وحفظه لها لتوالي العمر وبقية المدة المكتوبة لها دون من فارقتهم من عديد ولدها وبنيها، كأنه سبحانه قد استخلص لها حبيبه ليكون حبيبها، وصفيّه ليكون صفيّها، والحريص علىٰ حقه ليكون حريصاً علىٰ حقها، والوفي له ليكون وفياً لها.

كان رضوان الله عليه مع امه (البتول) علىٰ سجية من جده المصطفىٰ مع زهرائه، اذا دخل البيت كانت اول من يقصده بالسلام والتحية، يدخل عليها لينحني علىٰ يدها يقبلها، ثم يتفقد شؤونها، ويستخبرها حالها، ولاينسىٰ اذا انصرف من البيت أن يمرَّ بها يقبّل يدها ويودِّعها، ويسألها دعاء الامِّ الرؤوم، فتسأله هي بدورها دعاء الولد الشفيق. كان يقوم بتكريمها واجلالها كما يقوم بفرضه وطاعته، وكان يدأب في اسعادها

وارضائها دأبه في ارضاء خالقه، وكان ينصب لراحتها ودعتها نصباً يـراه بعضاً من حق الشكر المفروض، ونزراً من فنون الاحسان اللازم.

كان لاتقرّ له عين حتىٰ تقر عينها، ولا يهدأ له قلب حتىٰ يهدأ قلبها، ولا يطمئنُّ له بال حتىٰ يطمئن بالها، وكان هو في قلبها عين ذلك الدم المتدفق منه في عروقها، وعين تلك النبضات التي تشيع فيها الحياة. كان في نفسها مقاماً شامخاً قد عانق السماء فهي شاخصة الطرف اليه تعجب له. كان هـو عندها كقلبها النابض لا تعرف طعم العيش دونه.

ومن البرهان علىٰ هذا تلك الحال التي صارت اليها عندما جاءت كبول الطغاة وقيودهم لتصفد المعصمين الطاهرين لولدها الامام في اعتقاله قبل الاخير، فقد صعقت لهول ما سمعت، وكادت تندك لفرط ما أحسّت للنبأ في اذنيها من دوي هائل، وفي قلبها من فورة واستعار، لقـد قـامت بحـال الأسِيفِ الأسيان، مرتبكة الخطا، واهنة الأعضاء، مهزوزة الانحاء، لتـقف عند الباب طالبة من أذناب الشيطان ان تصفَّد هي في الاغلال ايضاً كفلذة كبدها، وأن تجرّ الىٰ السجن معه، فلا تريد لفرعها ان يفارق اصله، ولا لقلبها أنْ يغادر موضعه في بدنها، وراحت تلحّ بصوت متصل ضـئيل، شـاحب هزيل، هدّه الحزن والالم، لكنهم لم يصغوا اليها، وانطلقوا بضالتهم وافرين. كان كثيرٌ من السوء الذي يعرض للامام يكتم عنها، ويصرف وجهه الكريم عن وجهها، وتطرد غلواؤه وبأساؤه عن ساحة قلبها الكليل، فلا تسمع الاّ

حالاً طيبة تحسها روضة غناء، فوّاحة الشذىٰ اخّاذة السحر، قد احاطت بها من كل صوب تملأ دنياها بهجة وانشراحاً، وتغمر وجودها بشاشة وارتياحاً.

كان دعاؤها ان يقرّ الله عينها بالبقية من الذاهبين، وبالتالي من المتقدمين (بالصدر واخته). وان تغمض عينها مستسلمة للموت بين ايديهما يدعوان لها، ويترحمان عليها، فلا ترىٰ بعد ذلك صرف الموت المكرب بموتهما، ولا عادية المنون الفادحة تغمض عيونهما عنها، وترحل بهما قبلها الىٰ ديار الابد.

واجيب لها صدر دعائها دون تاليه لترىٰ ان الله قد رؤف بها رأفةً لم تتصورها قط، واعطاها مالم يخطر لها ببال لتسأل ربها اياه، لقد اقرّ الله عينها بولديها كأحسن ماتقر عين ام بولد اقرها بهما حيين يتسربلان لباس العزة والكبرياء، ويستويان علىٰ عرش المجد والعلاء، ثم أقرّ عينها بهما شهيدين قد رفعا الىٰ السماء، تحف بهما ملائكة الرحمن الىٰ بحبوحة الرضوان. وكان الامام الشهيد مع زوجه علىٰ الحال التي مضىٰ بعضها في سطور سالفات. كان يتقرب الىٰ ربه بكل حقوقها يؤديها اليها كاملة غير منقوصة، فلا تجد عنده الاّ قلباً محبّاً وفيّاً ما اعترىٰ مسيرة حبه ووفائه لها نصب او كلال، ونفساً دافئة ناعمة ما ساورها في هذا الشأن ضعف ولا انقطاع، كانت حاضرة في نفسه علىٰ كثرة مشاغله عنها، شاخصة فيها هيكل حب واعظام له، ودأب

وعناء في سبيله، فلا تعزب عن روحه وان عزبت عن عينه، ولا تنصرف عن شعوره وإن انصرف عنها وجهه الىٰ شؤونه الوافرة.

وكان يرضيه ويؤنسه أنّه يحس لديها في كثير انشغاله عنها بهموم قضيته وجهاده رضىً عز له النظير، وسروراً قد فاق كل سرور. لقد أدبها بأدبه، وأضاء روحها بضياء روحه، وصفّىٰ شعورها بصفاء شعوره، وهذا اعظم حقها عليه، فانقلبت منه موفورة بنعمة الادب الوافر، والخلق الرضيّ، والعقل الرصين، والتعلق بالله واللهوف الىٰ رضاه.

واما هي ففرشت قلباً رقيقاً ناعماً، تمحّض حباً ولهفة، وتجرّد ولاءً ووفاءً، واحضنت علىٰ وجوده المبارك بنفس رفيقة، تجهد في أن تملأ عيشه بالأنس الذي كان ينشده في السكن اليها، وأن تصرف عنه او تشاركه الغموم التي أرادها عوناً عليها، وشريكاً فيها.

كان لها قلب يخفق توجساً عليه من غِيَرِ الزمان، وخشية من طوارق الحدثان، وكان لها دمعة مسفوحة خشوعاً لقدس شخصه وجلاله، أو حزناً لما يلم به من سوء حاله، وكانت لها روح قد تعلّقت به حباً واشفاقاً، وانقطعت اليه ولاءً ورفقاً، تؤدي اليه في ذلك فرضاً يلزمها به العقل والدين والقلب، وهيهات منها ثم هيهات ان تريه حالاً تسوؤه، او تظهر له بوجه يكرهه، او تطرق سمعه بكلمة خشناء، او تسمعه عن حالها او حال صغارها مايؤذيه، دائبة في كتمان مكروهه، جاهدة في اظهار محبوبه، عاقدة عزمها علىٰ

ان لا يرىٰ زوجها الامام مالا يرضيه، وألا يسمع ما يشجيه.

أما الامام الشهيد مع اخته ، فقد جسّد امراً فريداً في الإخاء ومعلماً جديداً من معالم الارتباط الأخوي المتين.

كانت اخته عنده كنفسه لانهما من منبع واحد، وكانت لديه كعضو فيه فلحمهما سواء، وقد وشجت بينهما آصرة الدين والدم، ووصلت بينهما رابطة الروح والرحم، وعظّمت كلّاً في نفس اخيه فروض العقل والاسلام، وحقوق الاجلال والاكرام، فقد احبها بحب الله وحبّ قلبه، ورعاها لامر الله وأمر العلقة.

قد عُني بها وأكْثَرَ من الاعتناء لانه الفاها اهلاً لجسيمات الأمور وجلائل الاحداث، كان حريصاً علىٰ ان يقربها من ربها، ويشدها الىٰ خالقها، ويفقهها في دينها، ويعلمها معالم شريعتها، ويؤهلها لخدمة رسالتها وامتها، واداء دورها ووظيفتها، فبلغ في ذلك حدّاً تشهد له الامور الواضحة، والحقائق اللائحة، بأنه فردٌ بلا نظير، ووتر بلا شفع. لقد صرفها بما عرّفها عن كل شيء سوىٰ ربها، وعرّج بها عن كل شيء عداه اليه، فانقطعت اليه انقطاعه، وارتبطت به ارتباطه، حتىٰ نسيت لذلك اهم شيء في جبلتها من التطلع الىٰ قرين الحياة، وشريك العمر، وتقليب النظر في امر الزوج الذي هو في حياة سواها امرٌ لا ريب فيه، ولا محيد عنه، فلم يجد شأن البيت والقرين المرفوضين في قلبها حظاً من مكان يشغل به مكان الفكرة بالله ودينه، ولم

يأخذ امر الزواج المنبوذ نصيبه من نفسها ووقتها فينقص برأيها، نصيب ربّها ورسالتها.

انصرفت عن بهجة الحياة العاجلة الىٰ البهجة الآجلة، ورفضت زهرتها القريبة وشؤونها الرغيبة،رغبة في الخلود المجيد، والأبد السعيد، ومقعد الصدق الذي ادخره الله لاوليائه، واضمره لاصفيائه.

كان يصطفي لها من بنات افكاره في تفهيمها ما ترقىٰ به محلّها معلمة مرشدة ويجتبيها بطرائف التهذيب في تقويمها علىٰ استقامتها، لتبلغ درجتها هادية وقدوة.

كان يلاحظها في صغير امورها وكبيرها، يدلها علىٰ مواضع الصواب في افعالها، ويأخذ بيدها الىٰ مواطن السداد في اقوالها، ويبذل لها من وقته قارئاً لما تكتب وتنظم، ناظراً فيما يخطه يراعها الميمون محبوراً به، منشرح الصدر له، حريصاً علىٰ تهذيبه من الشوب، وتزكيته من العيب، وقليل ماهما.

كان اكثر ذهابها وايابها علىٰ عينه، وصنعة رأيه، واكثر ما تقرأ وتكتب لطف اشارته واختياره، ولم يعتم معها أباً رؤوفاً شفيقاً حريصاً، وان كان لاينسىٰ أنه اخوها الذي لايربو عليها بمزيد من السنين، وكانت لاتفتأ معه كالبنتِ ازاء ابيها تجله، وتعظمه، وتسمع له في اكبار وطمع، وتفهم منه في توقير وحرص، وتأخذ عنه علمه في اعجاب وشغف، وتنسىٰ أنّه وليد امٍّ

انجبتها، ورضيع لبن غذّاها.

كانت تحس له بهيبة في نفسها تذودها عن مخالفته حتىٰ في مـوارد الشك بخلافه وابائه، فلا تقدم او تحجم الا مستنيرة بهداه، حتىٰ لا تخالف عن رأيه ومشتهاه.

وكانت تحس له بعين رقيبة عليها قد صحبتها كظلّها، فلا تنهض بها جناح علىٰ الوقوع فيما لا يرضاه، فعينه التي لازمتها تراه، كانت تعلم انها في عيون الناس تحكي أخاها فلا عجب ان نراها تصون نفسها عن المـناقص صوناً، وتحجزها عن الصغائر حجزاً، وتصدها عن سوىٰ المعالي والمكرمات صدّاً، اداءً لبعض رسالتها، وحفظاً لكرامة الأخ الاستاذ بعد كرامتها.

وحين يحس منها أخوها رقيّها في مـدارج السـموّ تـطلبه حـثيثة، وصَعْدَها في معارج الكمال تبتغيه مشوقة، وهبها مالم يهبه لغيرها من النساء، فكانت، وكيلاً له تفصل في كثير من الأمور كما ترىٰ، وتفعل بفروض المال كما تستصوب. وكانت كما ارادها مثالاً يحتذىٰ، وقـدوة تـقتدىٰ، ومـناراً يستضاء، واضحت كما كان يرجو لها شيئاً فريداً في دنيا المرأة، ينحدر عنها سيل الهدىٰ والرشاد، ولا يرقىٰ اليها طائر الطموح والطلب.

وكانت بنت الهدىٰ حقاً، نشأت في احضانه الطهور، ورضعت مـن اثداء النور.

وهلم اليك الامر الكبير الذي انجبته التربية المباركة للامام الشهيد في

فردٍ واحدٍ منها هو تربيته لأهل بيته، واثر وجوده الشريف في عياله واهله، فحيث اجتمع في بيته امه واخته وزوجه لم تجد في هذا البيت الكريم اسماً ولا رسماً لما يقال له في غيره من البيوت خلاف ونزاع وبغضاء وكراهية، بل كان بيتاً كقلوب ساكنيه يغمره الاخاء والصفاء، وتزينه المحبة والوداد.

اذا غابت احدىٰ الثلاث الطيبات قالت الباقيتان: ما أوحش البيت! ولا تلبثان مستوحشتين حتىٰ تعود ثالثتهما الىٰ مكانها، واذا نأت عنه اثنتان، بقيت الاخيرة تعاني الغربة والوحدة حتىٰ ترجع اليها صاحبتاها.

وكان الامام الشهيد رضوان الله عليه مع ابنائه الاقربين علىٰ شأنه مع ابنائه الابعدين، وان كان هؤلاء اوفر حظاً به، واشد قرباً منه، واكثر وروداً علىٰ نبعه، وارتشافاً من نميره السلسبيل، فقد آثرهم غاية الايثار، وحباهم عظيم الحبوة، وافرغ لهم نفسه ووقته تاركاً كثيراً من شأن صغاره علىٰ كبير حبه لهم واشفاقه عليهم، لمن ربّاهم وائتمنهم علىٰ تربية غيرهم من اهله، فزوجه واخته اشد لصوقاً بهم وقرباً منهم، فكانوا يجدون منهما عيناً رامقة لاتغمض سهراً علىٰ راحتهم وتهذيبهم، وقلباً لهيفاً موّار الحرص علىٰ سلامة اجسامهم وعقولهم، بالغ الرغبة في ان يتعلّموا حقائق الهدىٰ علىٰ الصغر، ويتبينوا معالم الصلاح علىٰ الحداثة، فيألفوا طريق السداد كما يألفون الزاد، وتتغذّىٰ بانواره عقولهم ونفوسهم كما تتغذىٰ ابدانهم، فاذا به يشب معهم كما تشب اعضاؤهم، وييفع معهم كما تيفع اجسامهم.

وكان لهم من أبيهم، علىٰ فرط مشاغله وعظم شؤونه، جزء من وقته يصيبون فيه حظهم من حنان الابوة والطافها، ونصيبهم من تقويمها وتسديدها، حتىٰ لقد كان يدخل معهم في صغائر أمورهم من دروسهم وشؤونهم فيما بينهم، بل حتىٰ في ترتيب لُعَبٍ فكريةٍ لهم تقوىٰ بها حلومهم، وتنمو بها عقولهم.

وكان امراً عجيباً لم اسمع به من ذي قبل عن احد غيره، ان يوصي لامام الشهيد زوجه ان تلزم جانب الشدة مع ابنائها، تحاسبهم بحزم وجزم، وتدير شؤونهم بقوة وعزم، ليسلك هو جادّة الرفق واللين، لايغلظ عليهم، ولايقسو معهم، كأنه (رض) يرىٰ انها بهم الصق، وهم اليها اقرب، وجل امرهم موكول اليها، معوّل به عليها، فلا يزكو بغير الشدة يمازجها اللين، ولايصفو بغير الزجر يرافقه التبيين، ثم انهم اليها احب وهي بهم اراف، والىٰ رغباتهم اسرع، فحري ان تكسر حدّه الحب بشيء من القسوة حتىٰ لايبتلي بمصيبة الاذعان لرغبة المحبوب، ولا يناله داء التسليم لاهوائه.

ولعله كان يعلم أنه سيسبق زوجه في الأوبة الىٰ ربه فتبقىٰ هي لهم تتحمل كل العبء المفروض لهم من التفهيم والتهذيب والتقويم، فلتستعد لهذا الامر الجسيم قبل اوانه، وليجدوا فيها أماً حازمة يهابونها ويكبرونها، حتىٰ اذا بقيت معهم دون ابيهم كان لها بما في نفوسهم من مهابتها قوة تعينها علىٰ تدبير شؤونهم، لايخالفونها ولا يعصونها، فقد كانت لها معهم تلك

السجية الأبوية التي وهبها لها ابوهم لتكون بها معهم اماً عـطوفاً كـالأب الحازم، يذوقون منها طعم الامومة الناعمة، ويجدون عندها اقتدار الابـوة المدبِّرة.

الـرفـض والإبـاء

في الاتون المتلظي للطغيان، والخضم المتلاطم للجور، والهزاهز الغضوب للظلم... مظاهر جاهلية جديدة في العراق الأسير المهتضم، موتورة تتميز غيظاً، تطلب بتراتها القديمة من الاسلام العظيم اسمها (البعث)، وليست تعني غير بعث الضلالات الدفينة والحماقات المقبورة، والغوايات الذاهبة، والطاغوت الجاهلي المدحور بكل الوانه وفنونه، ليقبع علىٰ ارض الرافدين بكلكله الرهيب وثقله الفادح، ويخيِّم عليها بجحيمه المستعرة، وظلامه المطبق الخانق، وقد كمّت الافواه بالسجون والوعيد فلا كلمة رفض تقال، وكُبِّلت الايدي بالحديد والتهديد، فلا يد تمتد ساخطة تشير الىٰ الباطل، فضلاً عن ان تسطو به، وشُلَّت الاقلام والافهام بالمنع والترهيب فلا بارقة من رفض، ولا قبسة من إباء..

الاجواء ثقيلة مرمضة، والآفاق سوداء متدجية، والأيام تمر رتيبة علىٰ لون واحد من العناء والبلاء، قد أميط اللثام عن الحسام يهريق الدماء، وكشرت انياب الذئب الكاسر تنهش في لحوم الأبرياء، وشبّت نار العذاب الاليم تعبث بالمؤمنين في لهواتها، وهيمن علىٰ هذه الحياة الجهنمية صمت رهيب كأنه صمت القبور.

في ذلك الظلم والخوف والصمت دوّىٰ صوت كأنه الرعد «**تعساً لكم ايها الظالمون**»، وانطلقت صيحة كأنها قصيف الاعصار «**الفناء لكم ايها الطغاة**».

واندفع نداء قوي مهيب مادت له الارض، وخشعت السماء «بعداً لحكم الجاهلية، الاسلام هو الذي يقود الحياة».

ويتطلع الناس علىٰ خوف وحيرة وقد انـزاحت بـعض الاثـقال الباهظة للرهبة عن قلوبهم، فاذا بهم امام رجل إلهيٍّ وقور قد اطل عليهم بنوره الثاقب وجلاله الأخاذ من افق النجف ينادي: «أوبوا ايها التائهون، وقوموا ايها الخانعون، وهبوا ايها المستضعفون، ندك عرش الطاغوت ونمحق غلواء التيه والضلال، هيا ارحضوا عن انفسكم وصمة الذل والهوان، فأنتم احفاد الاعزَّاء، وامحـوا عـن وجـوهكم سـيماء القـهر والعبودية، فأنتم ابناء السادة الفاتحين، وكسِّروا قيود الاستعباد فانتم سلالة اولئك الاحرار واهبي الحرية، واقبروا الجاهلية الجـديدة كـما صنع اجدادكم الميامين بالجاهلية الاولىٰ».

واذا به الصدر بركان رفض واباء يتفجر فتتوزع حممه عـلىٰ أنحـاء الباطل تحرقها رويداً رويداً.

في تلك الحال التي لايحيط بها المقال، ثار عنفوان الاباء لدىٰ الامام الشهيد، فكان تحريم حزب البعث كالسيف البتّار يعبث في احشـاء تـلك العصبة المجرمة، فقد فُضِحُوا به كفاراً يريدون ان يعيدوا الناس الىٰ الكفر من جديد، وكان ايجاب أنْ تؤخذ الرواتب علىٰ وظائفهم بنية أنّها قد أخذت من يد الامام لا من أيديهم فهم لصوص سارقون.

وكان حَظْرٌ ان يصلي الناس خلف من لايمتّ الىٰ المرجعية الرشيدة بسبب، فضلاً عن الصلاة خلف من تشده الىٰ الضلالة البعثية علاقة مهما كانت.

ثم كانت الصرخة الكبرىٰ كالبركان الهادر، والدعوة العظمىٰ كالرعد القاصف:ـ

(علىٰ كل مسلم في العراق وعلىٰ كل عراقي خارج العراق ان يعمل بكل مابوسعه، ولو كلفه ذلك حياته، لازالة هذا الكابوس عن صدر العراق الحبيب، وتحريره من العصابة اللاإنسانية، وتوفير حكم صالح فذ شريف يقوم علىٰ اساس الاسلام).

واي رفض هو أقوىٰ من هذا الرفض الجاهر؟

واي اباء هو اورىٰ زناداً من هذا الإباء الثائر؟

وراح الامام يسرّي رفضه الىٰ وكلائه وعلماء البلاد من تلامذته، كي تمشي في عروق الامّة حرارة هذا الرفض تحركها وتدفعها الىٰ الثورة، لتغيير الواقع المرفوض، وكان يُحصّن وكلاءه بسرابيل واقية من الرفض لما في ايدي الظالمين وأعوانهم وان مدوها ملتمسين القبول، ورفض التقائهم مهما كانت الدواعىٰ لذلك تبدو بظاهر الصلاح والسلامة والجدوىٰ، وما ذلك الاّ لانه يريد للوكلاء ان يتحسسوا بالتجسيد أنّهم نوّاب القادة الحقيقيين الذين كل من عداهم قادة مزيفون، ويتحسس الناس بالواقع الحي أن هناك بوناً بعيداً

نفسياً وجسدياً بين قيادة السلطة الحاكمة واذنابها من جهة، والقادة الواقعيين وممثليهم من جهة اخرىٰ. هذا والكثير غيره كان من مضامين النهج الرائع الذي خطّه الصدر لرجال الحوزة المخلصين لدينهم وقضيتهم، فمشَوْا عليه فسطروا علىٰ قصر المدّة أروع المواقف الايمانية الجهادية، وكتبوا بالصبر والمصابرة دروساً لاتُنسىٰ عن التضحية والفداء والعطاء علىٰ منهج الصدر.

وصورة مصغرة لهذا الرفض كانت منه (رض) معي، فلست أنسىٰ كلماته المباركة في وصيته لي عندما أمرني بالخروج حيث رأىٰ موضع الحاجة اليّ: (**لاتلتق باحد من المسؤولين، ولا تقصده ابداً مهما كنت تشعر بالحاجة الىٰ ذلك. لاتستقبل احداً منهم صَغُرَ او كَبُرَ. لاتقبل منهم هدية، ولا تاخذ من ايديهم شيئاً، لاتتهيب ان تدعو الناس الىٰ المحور، وان تظهر لهم انك وكيل لي جئت تهدي الناس بامري، ولا تتستر باسم احد غيري لا.. لا.. لا.....**).

وانطلقت من فمه (لا) تزلزل الارض تحت اقدام الطغاة رفضاً لهم حين قالها جريئة باسلة (نعم) لدولة الحقّ والقرآن التي قامت علىٰ ثرىٰ ايران، يصحبها تمجيد لهذه الدولة وللامام القائد الكريم ماساماه احد فيه، وتعظيم لشأنها ماسبقه غيره اليه.

فالامام عنده فاتح مبين، اثلج صدور النبيين والائمة الطاهرين، ينبغي

لكل احد أنْ يذوب فيه، ويلهف اليه، ويستهديه، ويطيعه ولا يعصيه، فهو الأمام المظفر المنصور الذي انبلج صبحه بالنور، وهو صاحب الراية، ومانح حوض الهداية، في ديجور الضلال وسورات الغواية.

وهذه الدولة في رأيه حلم عزّ نيله علىٰ كل الهداة الميامين، فألفوا به اليوم مأمولاً اعيىٰ قبل هذا فتحقق، ومطلوباً استعصىٰ فنالته يـد الظـفر، فكان منه الحمد والثناء علىٰ رب سبب لها بألطافه، ومن الشكر والولاء لقائد قاد اليها بحكمته وتدبيره، ومن المعاضدة والتأييد مالم يكن له حدود، حتىٰ لقد مدّ يده اليها لتدبير بعض امورها بل أهمها، فكتب لها لمحة عن دستورها لتستنير بعلمه، وتحظىٰ بنصيب وافر منه، نـصيراً وظـهيراً، بـقدرة قـوله، وسلطان عقله، وآثار فعله.

«لم يكن الامام الخميني قدس سره في طرحه لشعار الجمهورية الاسلامية الا استمراراً لدعوة الانبياء في امتداد لدور محمد وعلي - عليهما السلام - في اقامة حكم الله في الارض».

«انا اذ نتطلع الىٰ المزيد من انتصاراتكم الحـاسمة نـضعُ كـل وجودنا في خدمة وجودكم الكبير، ونبتهل الىٰ المولىٰ سبحانه ان يديم ظلكم، ويحقق املنا في ظل مرجعيتكم وقيادتكم».

«يجب ان يكون واضحاً ان مرجعية السيد الخميني التي جسدت آمال الاسلام في ايران لابد من الالتفاف حـولها، والاخـلاص لهـا،

وحماية مصالحها، والذوبان في وجودها العظيم بقدر ذوبانها في هدفها العظيم».

«ان الواجب علىٰ كل احد منكم وعلىٰ كل فرد قدر له حظه السعيد ان يعيش في كنف هذه التجربة الاسلامية الرائدة ان يبذل كل طاقاته وكل مالديه من امكانات وخدمات ويضع كل ذلك في خدمة التجربة فلا توقف في البذل والبناء، يشاد لاجل الاسلام، ولاحد للبذل والقضية ترتفع رايتها بقوة الاسلام».

وكانت افراح هذه الدولة افراحه، واتراحها اتراحه، يهنأ قلبه ويبسم ثغره اذا ابتسمت، ويحزن قلبه اذا تجهمت، فكان قتل مفكرها الكبير (المطهري) ذلك الخطب الحازب الذي اقامها واقعدها، وذلك الكرب الجائح الذي قام هو له وقعد علىٰ شاكلتها. وأقام له حفل تأبين مشهوداً برغم ما يراه من شقة العداء بين دولة الظالمين الذين دوّت صرخة رفضه لهم في آذانهم فوجفت لها قلوبهم، وبين دولة الحق التي راح يمدّ لها ليشد علىٰ يدها تأييداً، ومناصرة واسناداً، برغم مايسمعه منهم من التحذير من تأييدها.

واصرّ علىٰ دعمها واعلاء كلمتها، ونهض بامور وأمور مما احطت به علماً ومالم احط به من فنون المعاضدة والوان المساندة. مماكان رفضاً صارخاً للطغاة ليس له شبيه، واباءً جاهراً للظلم والظالمين عزّ علىٰ المماثلة. وكان لهذا سهمه الوافر في التعجيل عليه، واغراء الجناة به، وتحريضهم علىٰ فراغ

البال من همّه الجسيم المطبق، والراحة من بلائه المستطير المحدق.

لقد بلغت درجة الرفض بشهيدنا أعلىٰ مراقي الفداء، فقد وضع قلبه الرافض علىٰ راحته يخوض به لجج الخطوب، ولهوات المنايا القواتل غير حافل ولا ناكل. وما كان أروع تصميمه المذهل علىٰ ذلك العمل الاستشهادي الوتر حين قرّر ان يعلن كلمة الرفض للظالمين جاهرة صاخّة في صحن جده المرتضىٰ في النجف علىٰ مسمع الأمة ومرأىٰ الطغاة الجائرين، وأن يظل في اعلانه ذلك يتلو فصول كلمة الرفض حتىٰ تسكتَهُ رصاصة الكفر ليخر مخضباً بدم الفداء شهيداً من اعظم الشهداء، وحالت أمور دون هذا الأمر العظيم ، ومرت الأيام لتحقق له هدفه المنشود علىٰ درب التضحيات.

الامام والمسؤولية

النبيّ الامام – وأعظِمْ به أمانة الهية ائتمن الله عليها عباده المخلصين – نفسه في العراق بل في العالم الاسلامي ردحاً من الزمن هو عمر جهاد الامام الشهيد عيالاً علىٰ جهاده فكراً وعملاً، يسقيه اذا ظمئ من زلالٍ سلسبيل من معين ابداعه، ويطعمه اذا جاع مما تلذ نفسه من ثمار جنانه الفيحاء لعقله المعطاء، يلوذ بفكره من عاديات الفتن ومضلّات الاهواء، وجامحات الآراء، أتته تترىٰ كقطع الليل المظلم، فقماء مغوية كأنها متاهة ليس لها مدىً، مزبدة مربدة كأنها اعصار فيه نار، سوداء مخشيّة كأنها ليل اسفع عاصف. فقام فكر الامام الشهيد يحضن الاسلام يرشه نوراً تستضيء به العقول في الفتن الداجية، وسداداً تعتصم بحبله افكار الجيل في موج الاهواء، وحقائق نيرة البرهان لاتفت في رسوخها واستمساكها اراء المبطلين، فعاد الاسلام بفكر الامام ودأبه كشمس الضحىٰ لاتحجبها عن العيون سدف الليالي الواردات، ولاتصدها عن الانظار كثافة السحب الدكن، ولاتضير جلالها وشموخها عرامات التشويه والافتراء، فأضحىٰ الاسلام في كل العالم الاسلامي كالحصن الحريز لاتقتحمه جحافل الباطل، والمعقل المنيع لاتتسوره جنود الإلحاد.

وكان الاسلام في العراق عيالاً علىٰ فكر الشهيد وجهاده، فأعطاه من فكره ما اعطاه، وحماه به من كل كيد أتاه، ثم قرن الفكر بالعمل، والرأي بالسعي، والفداء بالاقدام، والتوجيه بالمناضلة، وتزييف الباطل بمقارعته،

وتفنيد الغوايات بالوقوف في وجهها، والدعاء الىٰ رفض الطغيان بمثاورته، والأمر بمنابذة الظالمين بمقاومتهم.

لقد تحمّل الامام الشهيد عبء الاسلام في عراقنا المأسور، وكان تحمل العبء في تلك الحال - التي رأيناها من جمحان الظلم، ونزقان الباطل، واستشراء البغي - جسيماً عظيماً لاتحتمله الاّ قلوب صادقة رزينة، ونفوس وفية أمينة، تستهين لنصرة الحق بالصعاب، وتستسهل في الطريق الىٰ الله كل الاثقال والأتعاب.

واعلن الامام نفسه خصماً عنيداً للضلالة العفلقية، وغريماً شديداً لطاغوت البعث الاثيم، وكان معنىٰ ذلك في نفس الأمام، حسب شواهد الحال، ان يكون ترقّبه للموت أوفَرَ منه للفوز، ونظره الىٰ الشهادة اكثر منه الىٰ نيل الغاية العاجلة، وانتظاره لريب المنون اقرب من انتظاره للظفر. بل كان (رضوان الله عليه) يرىٰ الموت حتماً في هذه المجاهدة، والشهادة فرضاً في ذلك الصيال، فما ضعف ولااستكان، ولا فتت مهابة القتل في عضد عزمه البالغ، ولا ألانت شدة الخطب بأسه الصلب العنيد، ومضىٰ ينقل قدمه الراسخة في الأتون ولا يبالي، يركل بها جسد الضلال الهائل ليحطم اوصاله. وعصفت في وجهه عاصفات (البعث) فما عاد ادراجه من عجز ووهن، وما كَبَتْ به القدم من خوف ورهبة، وانشب وحش البغي مراراً انيابه في جسده الكريم، واخذه الىٰ سجونه ليضع نصب عينيه مخيفاً شجرة العذاب كأن

طلعها رؤوس الشياطين، ويملأ أُذنيه محذِّراً بزعيق الوعيد والتهديد، ولكنه يؤوب بعد ذلك وهو علىٰ شأنه من مجاهدةٍ للبغي دائبة لاتعيىٰ، ومناهضة للجور واصبةً لاتخور، فلا العذاب فلّ عزمه، ولا رعود الترهيب قد لوت عنان انطلاقته، او غيرت وجه اندفاعه.

كلّا لو يعلم الطغاة انهم لن يؤثروا في عزيمته بما أرَوْهُ واسمعوه ولو قدر نقير من التأثير، ولن ينقصوا من شكيمته مثقال ذرة، ولو علموا انهم امام صخر أصمَّ قُدَّ من جبلٍ أشَمَّ، لعلموا أنهم فيما يطلبونه من المحال كباسط كفَّيه الىٰ الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه، وأن دأبهم الحثيث معه فيما يرغبون كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف، وانهم لن ينالوا منه مايحبون حتىٰ يلج الجمل في سَمِّ الخياط، ولكنهم كابروا انفسهم، وسولوا لها ان تتطلع الىٰ شيء من الآمال يربو علىٰ الخيال.

يدخل عليه احد أعلاج البعث (زيد حيدر) مع احد الأزلام في بادرة بعثية لكسب وُدٍّ من لايودهم مادام الله لم يأذن بود الظالمين، وكان املهم كما يظنون ان يكون الحديث من الامام معه طافحاً عليه الرضىٰ ان لم يكن السرور بزيارة مسؤولين في الدولة، وما تعبر تلك الزيارة عنه من الاحترام لشخصه والإكبار له.

وخاب ظن الجائرين الذين ينظرون الىٰ الامور بعين الدنيا، ويزنونها بموازينها التافهة.

لقد كان حديثه معهم حديث القائد المؤمن الهمام، عرّفهم فيه دوره ودور العلماء والحوزة العلمية في مسيرة الامة، وعلاقة هذه الأمة بروادها الحقيقيين وتاريخهم الجهادي في التصدّي للدفاع عن حرماتها ومكاسبها، وان العلماء هم ضمير الأمة ووجدانها، وهم موضع اسرارها، وهم لسانها الناطق... وكان الحديث طويلاً، وكان المستمعون ينصتون باكبار واجلال، وهم يرون شيئاً فريداً لم يروه من قبل، عالماً رسالياً يقول الحق بصرامة واقتدار، ثائراً رافضاً ينطق بآيات الرفض والإباء تنزل من علياء النجدة للحق المهتضم والحمية الاسلامية المقدسة.

ويختم الامام كلامه بعبارة الرفض الجاهر حين يلتفت الحبوبي الىٰ زيد حيدر ويقول له (ان مثل هذا الرجل يجب ان يكون عالماً للبعثيين).

يقول الامام الهمام:

(أنا عالم المسلمين لا عالم البعثيين).

فيالها من ضربة من باسل مقدام علىٰ هام الكبرياء البعثية حيث يعلن براءة العالم المسلم من زمرة البعث، وهل ذلك غير براءة الإيمان من الكفر، والاسلام من الجاهلية؟

لقد شغلت بال الامام الشهيد قضية الاسلام التي اعطاها عصارة عمره، وبذل لها زهرة دهره، فكان مطمحه ان يراه خفاق اللواء علىٰ ارض العراق، مبسوط السلطان علىٰ ربوعه، ليرىٰ الناس في عدله القويم سعادتهم،

ومن حكمه الميمون هناءهم، وكان المحرومون والمستضعفون الذين أمَّلوا فيه اعظم آمالهم نصب عينيه، يراهم بناظره إذ لم تحجبهم عنه حجب الاستعلاء ولا أستار اللامبالاة، ويسمع شكاتهم فيحس كأنها نصال تخترق أحشاءه، ويسمع من اخبارهم مايرمضه ويسهِّده، فلم يجد الامام بُدّاً من ان يستنهضهم وينهض بهم، ويشحذ هممهم ليصاول بها، فهم سلاح ثورته، وهم جُلّ غايتها، ففتح لهم قلبه يذيقهم دفأه بعد أن حُرِموا دفء الحياة، وفتح لهم ذراعيه يضمهم الىٰ صدره الحنون بعد ان نَبَتْ بهم ونبذتهم معيشتهم الكأداء، وفتح لهم باب داره علىٰ مصراعيه ليجتمع بهم ويسمع منهم، ويرسم لهم طريق الخلاص. وجاؤوه من كل حدب وصوب زرافاتٍ ووحداناً، شيباً وشباناً، وحسرت اليه الكواعب وبنات الخدور يبايعونه مخلصين، ويبدون صفحة البأس والعناد للظلم تحت لوائه ثائرين.

فراح هو يأسو جراحهم ببلسم كلامه، ويربط علىٰ قلوبهم برباطته، ويشد علىٰ أيديهم بيد الاقتدار يقول لهم: **(قد آن للمستضعفين أن يُمَكَّنوا ويسودوا، وللمحرومين ان تفك عنهم أغلال الحرمان) (قد صممت علىٰ الشهادة لانها غاية الطريق في سعيي من اجلكم وبذلي في سبيلكم، ووالله لن أُسلمكم، او اخذلكم ، أو اتخلىٰ عنكم، ولو كان دون ذلك تقطيع الاوصال علىٰ ثرىٰ كربلاء مكرورة في عاشوراء مجدّد، وسيبقىٰ دمي بعد ذلك حراباً مشرعة لها طعنٌ دَرَاكٌ في صدور**

الظالمين، وسيوفاً مصلتة تقدُّ رقابهم، وصرخة مدوية ليس لها خفوت تقضُّ مضاجع المستكبرين).

وأَعظِمْ بعشق اولئك المحرومين لإمامهم، ومحبتهم لقائدهم، مذ أَفْوَهُ ذاب رفقاً بهم، ورحمة لهم، واشفاقاً عليهم، ولقد سمعوا يوماً أنـه يـريد أن ينصرف عن بلاد السوء الىٰ بلاد سواها، فعجوا وهاجوا، وماج بعضهم في بعض من قلق وحيرة، وأرقلوا اليه مسرعين يستوضحون صدق الانباء، ليذوقوا طعم النعيم بتكذيبها، ويعطوا الامام عهداً مؤكداً علىٰ الموت دونه او يوقعهم في يتم فادح، وخطبٍ جائحٍ، حين ينأىٰ عن وجوههم فتذوي في الصدور آمالهم، وتغرب عن عيونهم شمس تنير لهم مسالكهم في الديجور، وتبصّرهم مواضع اقدامهم في المتاهة.

ويطلع عليهم امامهم بوجهه الباسم اللألاء ليفقأ عين خشيتهم فلا تراهم بعدها، ويكسر جموح الخوف فيهم، ونزقان التوجس في صدورهم، ويقول لهم قولته المشهورة (**محياي محياكم ومماتي مماتكم**). ليصدق فـيها صدقاً لايجارىٰ، ويفي لها وفاءً لايماثل، ويعطيها دليل الصدق والوفاء دماً زكياً مسفوحاً، وجسداً مباركاً صريعاً.

ولقد وفت للامام الشهيد امته كما وفىٰ لها، وصَدَقَته العهد علىٰ الولاء والفداء كما صدقها العهد علىٰ الريادة بكـل أحمـالها، فـحين امـتدت يـد الطاغوت بالأصفاد لتكبل يد الامام، وتمضي به الىٰ ظلام السجن لتـفصل

بينه وبين إتمام مسيرته، قامت تلك الأمة مذعورة فزعة كأنما صِيْحَ بها عن نوم، واندفعت كالبركان لها صوت يدوِّي فيهدر، وحمم تنتشر فتدمر، ومذاب يسيل فيفتك بمن يبدي صفحته له.

لقد انثال علىٰ بيت الامام جمع كثير من الوحوش الكاسرة علىٰ هيئة بشرية، وسدّت المنافذ الىٰ البيت، لاتفارقها رعدة المقرور، ورجفة الخائف المذعور، انها رهبة الحقيقة التي جاؤوا ليظلموها وهم يعلمون أن الغلبة لها، وهيبة الحق الذي أتوا ليطفئوا نوره وهم يدرون ان الله متمّه وهم كارهون، وذلك هو شأن القاهر المقهور، والآسر المأسور، وهم ما تأهبوا هذه الأُهبة، ولا أقبلوا بهذه الكثرة مبكرين الا احساساً منهم بعظمة من بسطوا اليه أيديهم بالسوء، وهيبة من هموا أن يسطوا به ويكيدوه، فتصور تلك العظمة بسطة في الجسم والقوة، وظنوا تلك الهيبة بأساً وقدرة، وحسبوا لذلك الجلال وجهاً رهيباً اذا جاؤوه عن قلّة هابوه، وضعفوا عن مواجهته، وما علموا أنهم انما يهجمون علىٰ رجل يده بيضاء قد خلت من اسباب المدافعة، وجسمه واهن قد خلا من أشراط الممانعة، إن دعوه أجاب غير خائف ولا هيّاب، لايخافهم وانما هم سبب الىٰ الموت فلو كان يخشاه لخشي سببه، لكنه كجده السبط الشهيد يرىٰ الموت سعادة، والشهادة رأس الفخر، والقتل في سبيل الله سيد الفضائل.

(فهلمِّي يارسل الموت. وهلمي يا اسباب الردىٰ. فمازال

الصب المستهام علىٰ شوقه المدام، يسأل أيان تأتين بفتحك المــبين؟ ماخافك مذ عرف أنك الباب الىٰ غاية مجده، وما هابك مذ تيقن أنك الطريق الىٰ منتهىٰ شأوه وجدِّه، ومثلك يحمد ولا يذم، ويشكـر ولا يكفر).

لقد كان اعتقال الامام في رجب مشهوداً، عرف منه القائد صـدق أمته ووفاءها، وعرفت منه الامة عزم قائدها ومضاءه.

وعرفت منه عصابة الشؤم أنها في احشاء زلزال يهم أن يبدِّل عاليها سافلها، وعلىٰ شفا جرفٍ هارٍ من الفناء، ماهي الا ريثما تعصف ريح الوثبة الاخيرة لهذه الامة الرافضة وإمامها الابي ليقذفا بهـا في حـضيض اللـعنة الدائمة لعنة التاريخ والاجيال.

لقد سمعت الامة بالنبأ فـاندفعت كـالعاصف الزعـزع، وانـتفضت كالاسد الهصور أُهين في عرينه، وانطلقت صرخاتها من كل مكان تـدعو بالويل والثبور للطغاة والجناة، وعظائم الامور لمن أهانوا الامة في قائدها.

وكان الموقف الرائع الفريد في معقل الامام في النجف هو ما صنعته امرأة لاكالنساء، هي صنعة ذلك الامام، ورتّبتْ فصوله أنثىٰ وادعة قد صيّر منها مربيها ليثاً هماماً، وبطلاً مقداماً.

لقد خرجت وراء اخيها بين يدي الظالمين لتصيح بهم صيحة كأنها صيحة القدر، تقول لهم: (تبّت أيديكم أيّها الجلادون لانها لاتحـمل غـير القيود، وضل سعيكم أيّها الظالمونَ، لانَّه تمحّض للقتل والخراب، وخـابَ

جُهدكم ايها الحاقدون لانه لم يعرف سوىٰ التضليل والتقتيل.

اتحسبون حرَّ القيود يخيفنا؟ وثقل الحديد يبهظنا؟ والموت يرهبنا؟ ونحن علىٰ بصيرة من امرنا، وبينة من ربنا، واسوة من اجدادنا، لم نخطُ خطوةً علىٰ الطريق الذي آخترناه الاّ بعد أن عرفناه طريق عناء ودمـاء، لم نأتِـهِ جاهلين، اوفي امره متحيِّرين، او عن مواصلة السير فيه مترددين؟

انكم في الوهم الكبير اذ تحسبون أنّ قدرتكم أمضىٰ من عزيمتنا، وأن سيوفكم اشدّ وقعاً من صرختنا، ولنا بعد ذلك ربٌ رؤوف كتب لينصرن عباده الذين نصروه، ولكم منتقم جبّار قضىٰ ليُبيرَنَّ الظالمين، ويخضد شوكة الجبارين، هلموا ادخلوا البيت فانظروا ما الذي فيه يخيفكم؟ وماذا فيه مما ترهبون غير قرآن مجيد أبىٰ الله فأبينا الاّ إعلاءَهُ وتـبيانه، ورسـالة غـراء وضعها الله أمانة في اعناقنا فشئنا أن نـصون الأمـانة، ونـؤدي الرسـالة، ونحفظها من مطامع الغزاة، وحراب الطغاة؟

عجباً لكم ولما تفعلون! جئتم بالعدة والعديد، والرجال والحديد الىٰ رجلٍ تعلمون أنّه أعزل ليس له الاّ ولد صغير لايقدر علىٰ شيء، وصبايا ليس فيهن له أَمام عدوّه غناء.

أما كان الاجدر بكم ان توجهوا بنادقكم هذه الىٰ آسريكـم ممـن يهتكون أعراضكم، فلا تغارون، وينهبون أموالكم فلا تغضبون، ويدوسون كرامتكم فلا تثأرون؟ أما كان الحري ان تذهبوا بها الىٰ غاصب أرضكـم

وديارکم لتخرجوه منها کرهاً إن کنتم تصدقون في مزاعمكم؟ بل أنتم الساعة تحمونه بها ممن يصدق في عداوته له، وحربه إياه، وعزمه علىٰ قمعه وقطع دابره.

ألا أيها الآسرون المأسورون، والمخيفون الخائفون تعساً لكم ولما تقترفه أيديكم ياجُناة التاريخ، وقتلة الأبرياء، ومطفئي نور السنن، ومهلكي الحرث والنسل. لتعلمُنَّ عما قليلٍ أن الله ناصرنا، ومنجز لنا غايتنا، وهو معتمدنا، وهو موضع حاجتنا، وهو مبيركم ومهلككم والمدمِّر عليكم).

انها تتحدث وترىٰ الجناة الجفاة امامها زرقاً ناكسي رؤوسهم، تدور اعينهم كالذي يُغشىٰ عليه من الموت، يتخافتون كأنّ علىٰ رؤوسهم الطير، وقد دهمت الصيحة قلوبهم فهي واجفة، وتغيرت وجوههم إذ تغشتها سحابة من حزن مرير.

وكاد ان يطول بهم المقام في هذا الضرام لولا ان عجلوا بالانصراف يحوطون كالذئاب علىٰ مخافة بالغة بالهزبر الأسير.

ولم تقفْ بـ(بنت الهدىٰ) قدماها عند ذلك الموقف، بل اندفعت مهطعة الىٰ ضريح جدِّها ابي السبطين لتصيح بين الجموع، ولصيحتها مرجل من العزيمة يغلي في نفوس المؤمنين، وجَيَشَاتٌ من المضاء تدور في انحائهم، فعادوا منها كالاسود الضارية قد أسرتهم هذه الصيحة فهم علىٰ أثر خطاها لوحيها يقتدون.

لقد كان صوتها يدوِّي:ـ

الظليمةَ الظليمة. من حكومة اعتقلت السيد الصدر.

ايها الناس يعتقل امامكم وانتم غافلون؟

ويقاد من بين ظهرانيكم وانتم ساكتون؟

ماذا بعد هذه المصيبة تنتظرون؟

فما هي الا ساعة حتىٰ كانت قد دوت في آفاق النجف صيحة واحدة جاهرة.

(يحييٰ الصدر، يحييٰ الصدر).

وامتدت تلك الصرخة في الفضاء لتبلغ عنان السماء، وترامت في الانحاء لتطبق الارجاء، وتجاوبت كل جهات العراق بذلك النداء الغاضب الذي افزع قلوب المجرمين، وأخذ بمجامعها، فتركوا الاسد يعود الىٰ عرينه لم يمسسه سوء، ولم يصل اليه منهم أذىٰ.

(وكان امراً عظيماً أتت به بنت الهدىٰ، فالنعومة والرهافة اضحت صلابة وعنفوانا، والضعف والوهن صارا عزمة ماضية وبأساً عواناً، واليف الخِدْر غدت نسراً جسوراً ينازع الريح الزعزع، وليثاً صائلاً يساور الهول الجامع.

فيا عجبا والله ما الذي أخرج هذه الانثىٰ الوادعة التي جبلت بخلقتها علىٰ اللين، وسنّت في تكوينها الدعة والراحة، من طورها الىٰ

طور الشدَّة والبأس ؟

وما الذي عرّج بها عن دنيا الرِّقة واللطف الىٰ دنـيا القسـوة والعنف؟!

انه صنع الإيمان والتربية الصدرية المـبدعة التي أفـاضت في الارض الطافها آياتٍ باهرةً من المشـاهد، وعـلامات زاهـرة مـن صنعها الكريم).

نعم لقد تحمّل الامام الشهيد مسؤوليته تجاه ربه ودينه وأمته أعظم حال من التحمل، وضعها علىٰ ظهره بأثقالها الباهظة ليعبر بها بحـر البـلاء الدامي، ويرسو بها عند شاطئ الأمان.

ولقد كان عنده من خصائص الاهلية لحملها أمور هنّ عماد قضيتها، وهن روحها التي تجري بين جنبيها.

كان عنده الفكر الرائد الخلّاق، والاخلاص، والوفاء، وعلو الهـمة، ومضاء العزيمة، ونكران الذات، والتفاني، والاستعداد لبذل النفس.

اجل وكان عنده اليقين بالنصر ولو من عطاء الشهادة.

ولقد تجسّدت هذه الخصال في مسيرة جهاده تجسداً أعـطىٰ مـثالاً لقيادة اسلامية حقيقية قلَّ مثيلها في تاريخ الاسلام..

(وليس ينسىٰ العراق ولن ينسىٰ أنّه قد تفرَّد بالاثقال في قضيته رجل واحد اسمه «الصدر» زعزع الكربُ سواه ولم يزعزعه، وهالت

النازلة غيره ولم تهله، ولم تجد في نفسه شيئاً من مخـافة، لا يـروعه الصّليل فتخبو وقدة العزم في قلبه، ولايهده النطاح فيقعد عن شأنـه من مقارعة الهزاهز.

وكان في الزلزال الفادح قدراً من البأس قـاهراً، وقـضاءً مـن العزم ماضياً، طوىٰ الزعازع بيمينه، ومشىٰ في جـحيمها كـما يمـشي السيل فاذا دخانها يختنق من سعَّرها.

وكان في ظلماء الخطوب علىٰ ضياء اليقين فلم يحفل، ومضىٰ في بلوائها علىٰ رسوخ الصدق فلم ينكل)

الـــريـــادة

لقد امتازت الشخصية الكبيرة للأمام الصدر (رض) بِسِمةٍ فريدة وضعته في شغاف قلب المؤمن وانسان عينه، فالوجد والحرص هناك حليفه المسامر، والوله والاكبار نصيبه الملازم، وهو ثمة زاد الحب والعرفان، وضياء البصيرة واليقين، والنور الهادي علىٰ السبيل، حيث اعتكرت دياجير الاباطيل والأضاليل، وآدلهمت ليالي الفتن والشبهات، وتكثفت حنادس الحماقات والجاهليات، وتلك السمة الفريدة هي (الريادة) في امورٍ هنّ سنام مجد الاسلام وعزّه، جُمِعْن له جمعاً بلطف ربه وبدأ به، حيث حجزن عن غيره حجزاً، وجئن اليه بمشيئة اقتداره مذعنات اذ قعد الوهن بغيره عن ان يظفر لديهن حتىٰ بهاجس التسليم.

وكانت الريادة الصدرية في هذه الأمور المهمة:ـ

اولاً: ريادة الفكر الاسلامي الأصيل، فليس ثمة في بني الاسلام او خصمائه من لا يشهد لذلك المفكّر الفذ بأنه رائد الفكر الاسلامي في أبوابه وطرائقه وفنونه، وفي كل مجالات الاسلام الواسعة، وشؤون ذلك الدين الحنيف، فهو فقيه وطأ هام الفقاهة بشموخ فذٍّ، وفيلسوف دوّخ العقول، وباحث تاريخ يغوص في أعماقه يستخلص سننه وقوانينه، وكلاميٌّ بذّ المتكلمين، ومفكر سياسي بارع صنع الثورة وفجّرها في عنف الطاغوت، ومفسر قرآني سبح بعزمة الفهم والبصيرة في الخضم العباب لنور الكلمات الربّانية الموحاة، فيطلع بها قبسات يبسمن للوجود عن ثغر الجدة والعمق

والشمول والانتساب البديع للروح القرآني الرفيع.

لم يدع مجالاً في شؤون رسالته العظيمة لم يطرقه يستثير دفائنه، ويستخرج لآلئه الحسان، ويطلع بمناقبه الفاتنة وأياديه البيض علىٰ البشرية بلطف واقتدار، وعزيمة واصرار، حتىٰ طبّق أو كاد كلّ تلك المجالات بحثاً وتنقيباً وإثارة وطرحاً وبياناً، حيث بدا الاسلام فكر السماء سماوياً يهزأ بتفاهات الارض، ربّانياً يسخر من حماقات المربوبين، علوياً متسامياً صعقت لفرط عظمته سخافات التدنّي والهبوط، جليلاً مهيباً ذابت لمهابته سفاهات اهل الوضاعة والصغار.

(ولم يزل الصدر مع دينه باذل الورد من روضته الغنّاء، ونافج العطر من جنانه الفيحاء، ومستخرج عظمتها في القرون المتطاولة سترتها عرامات العادين، وحجبتها استار الشياطين.

ولم يزل ماتح الحوض الموصول بالكوثر في كبد النعيم يسقي الظمأىٰ الىٰ الحقيقة عذبها الشبم الزلال، لينقلبوا وقد نقع غليلهم بعد ان أحزبهم صدىٰ الهواجر وعطش الجدب والمحول) .

وإنك لترىٰ الاسلام الاصيل طلع به فكر الشهيد الصدر علىٰ العالم مثار العجب به ومنه، والدهشة لروعته، والحيرة من اعجازه وافحامه، وقد حظي بالرضا والقناعة في العقول والقلوب فحازها احتياز الفاتح الظافر، وحرّكها ببأس اليقين الكبير لتعطي عطاءها.

وامتد فتح الفكر الصدري تيّاراً مارداً أخذ علىٰ الضلالات الوافدة كل الآفاق، فهي مدحورة مخذولة، واستبانت وضيعة زائفة لاتقدر يـدها الشلاء علىٰ دفاع، ولا يحير لسانها الألكن نداءً.

واعتلىٰ الصدر منبر الريادة الفكرية في عالم الاسلام المعاصر ملاكاً مقدساً ورائداً هماماً تسـمّرت بـه العـيون، وذابت الافـئدة، وأنغمست الارواح في أنواره يهذّبها ويـصقلها و يجـلوها ليـبديها صنائع البر واللطف، وعطايا الفضل والاحسان.

لقد كانت معالم العظمة في فكر الشهيد الصدر تتجلىٰ في أنه كان فكراً أصيلاً لم ينبع الاّ من اصله الصحيح، ولم يجانفه مجانفة عامدة او ساهية، ولم ينحرف عنه لانه نظر بعينه واستهداه، فما شطّت بـه قـدماه الىٰ سـواه، ولم يدخل فيه ماليس منه لان صارف التقوىٰ المقتدر، وعبقرية الكشف والتمييز عصمته من مساءة ذلك الزيغ، ولم يمزجه بشـوب ممـا سـواه، ولم يـنقصه بزخرف مما عداه، بل كان هو فكر الاسلام كما جاء به الوحي نوراً هـادياً، ودلالة مرشدة، وسداداً عاصماً. ولقد كان فكره فوق كونه شمولياً مستوعباً أنه تميّز بالعمق، فله غور بعيد المدىٰ تكمن فيه العجائب، فكان رصيناً شديد القوىٰ، عَيّتْ بمنافحته الحلوم المقتدرة، فقعدت أسير العجز والحيرة.

وتلتمع في فكره الفذ نزعة الكشف والابداع، والبحث عن الكنوز الدفينة، ولقد عافت نفسه الرضا بالمطروح، واجـترار المألوف، واخـذ مـا

تعاقبت عليه الأزمنة او تسالم عليه الأكابر أخذ المسلّمات، وكانت روحه تواقة الىٰ معرفة مافي الاسلام من عظيم شؤونه ومواهبه، وسنيّ عطاياه، وعجيب اسراره في الفلسفة الكونية، والعقيدة والنظام، وعظمة التشريع، ووحدة المنهج وتكامله، وسيرة القادة الهداة «الأئمة» في الثورة والاصلاح، وطريقهم المدروس (ان صح التعبير) في القيادة.

وتناهضت قوة العزيمة الثاقبة، واصرار القلب المشوق، وعشق النفس الوالهة، والألق الفكري المشهود علىٰ ان تكون له جناح نسر عملاق يحلّق بها في سماوات دينه الممتدة المتمادية، فاذا به قد بلغ الكثير مما يحب فبات قرير العين، راضي الروح، منشرح الصدر، بما حظي به وأحظىٰ من جزيل النوال وعظيم المنال.

ونزعة الابداع تلك يحسها المتطلعون في مسيرة الصدر الفكرية البديعة، في جُلّ ما طلع به علىٰ دنيا المسلمين من مواهب الدين العظيم، وتتجلىٰ تجلّيها الطوريّ الصاعق في كشفه اسسه المنطقية للاستقراء، والنظرية الاقتصادية في الاسلام، وفلسفة المنهج القيادي عند الائمة الميامين.

وكان اروع مافي منهج الصدر الفكري أنه منهج المنطق والبرهان، فلا تجد في ما يطرحه الصدر الاّ اموراً مبرهنة مستدلاً عليها، معاضدة بالدليل، مدعومة بالحجة حتىٰ في تلك التي سمّوها ذوقية وجدانية او عقلائية، فقعدوا وانين أو عاجزين عن اقامة

برهانها.

وكان الصدر البرهاني عتيد الدليل حاضرة، تتفتق قريحته المبدعة عن طرائف النكات الاستدلالية. وقد اعتبره العارفون لهذه الخصيصة في منهجه مدرسة اسلاميّة قامت علىٰ المنهج المنطقي والدليل العلمي مدعوماً بما ابتدعه من طرق الاستدلال الذوقي العقلائي، فاذا هي مدرسة برهانية متكاملة تدهش العقول لعظمتها واعجازها.

وكانت خصيصة الاستيعاب لدىٰ ذلك الامام الهمام في منهجه الفكري خصيصة عجيبة، فلم يكن ليذر موضوعاً يطرحه حتىٰ ولو كان اعتيادياً دون ان يتعامل معه تعامل الطبيب الجراح، فيروح بمبضعه المرهف يمشي في اجزاء الموضوع (الاحتمالات) يتفحصها تفحص الشفيق الدقيق يبحث فيها عن السرِّ الكامن حتىٰ يبلغ المرام في سيره.

وبذلك كان الصدر منهجاً فريداً في روح الأستدلال والأستيعاب والطابع البرهاني الشمولي.

وبهذا كانت ريادته للفكر الاسلامي ريادة شهد له الجميع فيها أنه فارس الصيال في حلبة النزال، وغالب الأقران اذا استعر الميدان، وأن ثورته الفكرية هي اعظم ثورة بعد ثورة الوحي والتنزيل، تدل أهدىٰ دلالة علىٰ عظمة ذلك المنهج الرباني ونشأته الالهية، واعجازه الجبروتي، واقتداره

المذهل، وحقيقة النبوّة والانباء ووحي السماء، بالمنطق القـويم والبرهـان القاطع، والبينة الدامغة، والحجة الواضحة، بعد ان كان اكثر أمر الدليل علىٰ ذلك يلوذ بالوجدان، ويهرع الىٰ التسليم والايمان وفريضة الاذعان، ويهرب الىٰ المدّعيات العرفية والذوقية، والمرسلات العقلية، بلا سند مـقبول، ولا دليل معقول.

واصبح الوجدان لدىٰ الصدر منهجاً استدلالياً يحفل بنكاته الطريفة، وبراهينه الظريفة، واصبح الذوق العقلائي والعـرفي في عـالم الصـدر جـنة برهانية فيها ما تلذُّ الأعين وتشتهي الأنفس، من نعم الأدلة والحجج التي تلوي اعجاب القلوب اليها، وتنحو باذعان الألباب شطرها.

ثانياً: ريادة الحالة الثورية في العراق:ـ

وتلك سجية كبرىٰ من سجاياه العالية، نهض به اليها عزم الايمـان الصادق العاشق، يظاهره الوعي المكين المتين بمطالب الدين المبين، تعضدهما روح رافضة أبيّة، ونفس شامخة عليّة، تأبىٰ أن تذل للجناة، او تركع للطغاة، أو تسكت علىٰ الضلال الذي راح يتولىٰ الامور مهيمناً مدبراً قد ثـنيت له وسادة الحكم يقضي بالغيِّ، ويحكم بالجهل، ويسـوس بـالعمىٰ، ويهـدي بالضلالات الىٰ الشقاوات، وقد احمىٰ مواسم الكفر والالحاد، وانتضىٰ بواتر العنف والفساد.

واندفع الصدر السياسي الثائر البارع الىٰ المقاومة السياسية والرفض

الثوري، وتحركت قواه علىٰ قلّتها وشدّة العداء من حولها تعمل في الساحة السياسية العراقية تدعو سراً واعلاناً الىٰ هدىٰ الله وشريعته وتحكيم دينه.

وانطلق الصدر المدبّر بأساليبه البارعة الىٰ تحريك الأمور المتاحة الىٰ الهدف المنشود، وتوجيه دفّة العمل السياسي الاسلامي الىٰ المقصود، بحكمة بالغة، وتدبير ذكيّ، واقتدار قياديٍّ جلي، وتميزت الريادة الثورية الصدرية هذه بأنها ريادة الواعي البصير العارف الذي أحاط بقضيته وهدفه وطريقه علماً، واستغرق آماله الكبيرة تفاؤلاً، وآلامه المتوقعة استعداداً واحتساباً، وجهوده المطلوبة عزماً علىٰ البذل، واحترامه للشأن الكبير فيه ثباتاً ابراهيمياً، وطول المسير مع المشاقّ الجسام صبراً محمدياً وآستدعاء المحن الفواقر لوازمها عند الثائرين شجاعة علويَّة، وما انفك في لهوات العناء الجائح صلداً كأنه الطود، آملاً كأنَّه قد عاين حصول الأمر الرغيب للإسلام، أو أداء الوظيفة المفروضة بالجهاد، صابراً قد تجلبب الصبر درعاً دون فتّ العاديات في عضد الوقوف والثبات.

عاينته المحن والآلام فهش لها واتخذها سميراً مؤنساً، واشتجرت عليه رماح الإيذاء، فسكن اليها ظلال جنة فيحاء، ودوَّت في اذنه الرعود القاصفة للتبريح فأحالتها البينة من الأمر مع الصبر والاحتساب أنغام وعود حالمة بالغلبة او الشهادة. وأجاءته الصروف

القاهرة مجعجعة الىٰ السجون والترهيب فحولها التأسّي بالآباء الطاهرين قرناء القيود والطوامير محاريب عبادة، فيها ذوب العرفان وسكينة الوجدان، والفراغ المشغول بذكر الرحمن).

وامتازت ريادته تلك بأنها ريادة المحيط بأمور الزمان، الملم بشؤون الواقع، البصير بما يكتنف الدنيا وقضيته ومايدور حوله من الاوضاع، وماتستدعيه من المواقف والخطط والتدبير المحكم.

وكان أعلىٰ السّجايا في ريادته (التصميم القاطع علىٰ الشهادة).

فكان القتل وهو غاية الفتل في كيد الظالمين محبوبه ومطلوبه.

ومن كان ذلك مشتهاه، فقد رأىٰ في مقدماته من الكروب بشائر زاهرة تطلّ لها ضاحكة من وراء الغيب طلعة بهية هي طلعة الخلود المأنوس في رحاب المقام الأسمىٰ، ومن رأىٰ ذلك في مصائبه وآلامه فماذا ينتظر منه الجناة المفسدون، وهم يكيدونه الاّ المحيّر للعقول من الرفض والعتاد، والآخذ بمجامع الأفئدة من الإباء والاصرار؟

لقد راد ركب الاستشهاد مذ صرخ في وجه الطغيان المهول هولاً مدمدماً فباء منه الظالمون بالخطب العياء، وسرت انفاس رفضه العابقة في قفر الهمود فأعشب روضاً طافحاً بينع الفداء، ودوّىٰ بركاناً ذلك الصوت الصدري المهيب (لابدّ من دم طاهر مهراق يجري في الجدب يروي ظمأ الحقّ المضام من مهجة البذل، وينقع غلّة الاسلام الىٰ روح التضحية

التي جُبل علىٰ ان لايعيش الاّ بها، ولا يقوم الاّ بطاقتها، ولا يثاور الاّ بيأسها).

والتمعت له في الافق البهي بسمة الشهادة ساحرة فاحتبلت روحه، وارتهنت لُبَّه، وفاح عبيرها الآسر وتشمَّمه، فاخذ بمجامع قلبه، وطلعت عليه من جنة العلياء بهجتها النوراء، فسلبه التفكير فيما سواها، واحاط به دهره اهاب الشهادة بكل معانيه السامية والوانه الزاهية، واستغرق فكره الرافع تصميمه انه (قربان الرسالة).

فما زال المنحر المقدس الذي يستسلم عنده لسلطان الوفاء بالعهد الأسمىٰ ماثلاً لعينه، كأنه قد نبت في انسانها، حاضراً في خاطره حضوراً متّصلاً بلا انقطاع ولا نفاد، فهو قبل الشهادة شهيد حي ينطق، وقتيل يسعىٰ، لكأنه والشهادة كمن قد نالها وسما في معراج مجدها الىٰ سبحات بارئها تجلِّلُه الكرامة والبهاء، وتغمره الانداء والآلاء.

ثالثاً: ـ ريادة الحركة التجديدية في الحوزة العلمية:

لقد اوجد الشهيد الصدر (رض) منهجاً بديعاً لسير هذا الجهاز الذي يرىٰ فيه انه القلب النابض في الامة يجري منه في عروقها دم الهدىٰ والرشاد، ويفيض فيها روح الوعي والسداد.

ولو ان ذلك القلب امتلأ بالدم الجديد الذي احتلبه له الصدر من قلبه وعقله. وعجّ بتلك المشاعر الرفيعة والأحاسيس السامية التي هي مشاعره

(رضوان الله عليه) واحاسيسه لألفيت ذلك الزعيم المجدد قد اكتحلت عينه قريرة ببرود الأماني الجسيمة المتحققة، وبات ناعم البال خليّه من البلبال، بأخذ الحوزة للمقود والزمام، وأدائها واجب التصدّي والقيام.

ولقد تجسدت ملامح التجديد في حياة الشهيد الصدر في الحوزة العلمية بأمور جمة نجملها فيما يأتي.

اولها: المنهج الفكري الخاص القائم علىٰ السجية المنطقية والنزعة البرهانية، والاستدلال الذوقي والعقلائي، والنهج الموضوعي الفريد في الاستظهار الفقهي، وكانت بحوثه ودراساته الأصولية والفقهية بنهجه الفكري الخاص ذلك مدرسة جديدة طلعت علىٰ عالم الحوزة من مجتهد شامخ الرأي لاينحني للنقد والتفنيد لأنه رشيد سديد، ثاقب النظر لاتفوته دقائق اللفتات، واسع المدىٰ بشمولية مشهودة وموسوعية محمودة، دقيق عجيب الدقّة لاتعزب عنه حتىٰ صغائر الاحتمالات، فهو رائد (حساب الاحتمال)، متين القوىٰ لاتستعصي عليه اشد المستغلقات، مهيب الفكرة، كأنها هبطت من الغيب.

موضوعي الطرح قد تنزه عن اوهام الخيال.

منهجي البحث مغرم بروح الاستدلال البديع، شغوف بنزعة الكشف والابداع، فريد فيما يهب عقله الصنّاع. قد مازج بين المنطق والذوق ممازجة فريدة وحيدة، وألّفَ بين الجنبة العقلائية والنزعة

البرهانية تأليفاً قد انفق غيره اعمارهم الزاهرة دون ان يخطر علىٰ بالهم فضلاً عن ان يتحقق في واقع دراساتهم وبحوثهم.

ثانياً: الثورة علىٰ القديم من اوضاع الحوزة ومسارها واخلاقيتها التليدة، واخذت هذه الثورة ابعادها علىٰ النحو الآتي:

أ- الثورة علىٰ الوضع الدراسي بشقّيه: مادة الدرس ونظام التدريس، وقد استغرق هذا الأمر الكبير من الشهيد السعيد فكراً طويلاً ووقتاً كثيراً، وخطا فيه خطوات مهمة واجهتها الصعوبات والمشاكل، وحفّت بها الأزمات والعراقيل، لكنها مشت بقوة الصواب والسداد، لاتحفل حتىٰ افلحت في أن تصيب حظاً كبيراً مما يؤمّله باريها ومبدعها.

ب - الثورة علىٰ القانون المألوف بابعاد الحوزة عن شؤون التصدي لريادة الأمّة وقيادة المجتمع، وقضية الاستعداد لملء الفراغ الفكري والسياسي علىٰ هدىٰ الاسلام، وحمل راية الجهاد علىٰ الطغاة والمستبدين، والمناداة بمبدأ تحكيم الشريعة السمحة، وقيادة الفقيه البصير العارف، وترتيب وضع الحوزة علىٰ حال تلائم هذا الدور الرائد، ويوفّيه مطالبه، ويتحمل أعباءَه وآلامه.

فالحوزة ليست الا مدرسة النبوة والامامة، تنجب خلائف الانبياء والاوصياء الذين هم قادة البشرية وساسة الناس، واولياء أمر الأمة، وان الحوزة يجب ان تكون فارس الاسلام الصائل الذي يذبُّ عنه العاديات،

ويدفع عنه الارزاء، ويصونه عن الأذىٰ، ويرفع لواءه الوضّاء منطلقاً به يخفق بانواره في أرجاء المعمورة يجلو دياجيرها وعشاها، ويمحو تيهها وعماها، ويهديها مواضع الرشد في خطاها. ومن هنا دعا الىٰ أن تواكب الحوزة الحياة الصاعدة، وأن تتطلع فيها بعمق، وأن تتعرّف كل عظمة الاسلام، ليمكنها من ذلك أن تردّ كيد التيّارات الوافدة، وتبطل مكر الحماقات المستشرية، وتفضح الزيف، وتسقط الاقنعة، وتبدي الحقيقة الناصعة اجلىٰ من الشمس، وتشرق بها علىٰ الدنيا شروق صبح مسفر. وكان هنا في ثورته علىٰ المنهج الدراسي قد دعا الىٰ أن يُطرح في الحوزة من الدروس ما يتماشىٰ وروح العصر، ومايمكّن الحوزة من مجاراة الواقع، والتصدّي لصياغته صياغة اسلامية، بوعي شامل كامل (كل معالم الحقيقة واضدادها)، (الايمان والالحاد)، (الاسلام والنظم الأخرىٰ)، (تفصيلات الشريعة واحكامها)، (القيادة الرشيدة والقيادات الزائفة).

وقد دارت كل مساعيه الميمونة وكتاباته المباركة في فلك هذه الشؤون الكبيرة، وتمحورت لها، وتمخّضت جهود جبارة في اطارها، فجاءت بالعجب العجاب.

جـ ـ الثورة علىٰ الكيفية والطريقة التي ترتبط بها الحوزة بالأمة، والاسلوب الذي يتم من خلاله وصل الناس بالمرجعية، ونوعية الافراد الذين يقومون بهذا العبء العظيم، وهم رسل الحوزة الىٰ الساحة، ومبلغوها

فيها، واسلوب تعامل هؤلاء مع الجماهير، فحيث كان الوكيل هو ممثِّل المرجع المعيّن، يتحدث باسمه، وينشر فتاواه، ويجمع الحقوق الشرعية له، ويقتات من احسان المحسنين، علىٰ دأب واحد من عمله، هو إمامة الناس في الصلاة، وبيان الاحكام، وحل مشاكلهم التي لا ربط لحلها بالمؤسسات الرسمية، وانجاز العديد من أمورهم التي تحتاج الىٰ الرأي الشرعي، وجمع اخماسهم وزكواتهم وما الىٰ غير ذلك مما لا يعدو هذه الدائرة الضيّقة التي اعلن الصدر أنها الجزء الضئيل الهامشي في الدور الحقيقي لرسول الحوزة الهادفة وممثل المرجعية الرشيدة، وأن هناك الشيء الاهم في ذلك الدور، وهو التصدي القيادي نيابة عن قيادة المسلمين التي بعثتهُ وكيلاً عنها، والتمهيد لعملية التغيير الكبرىٰ، وطرح البديل العظيم.

وهذه الوظيفة تستدعي رجالها الأكفاء الذين تسلّحوا بعمق الايمان بها، وعظم الادراك للمسؤولية، وآمنوا بالهدف الأسمىٰ، وتدرّعوا بالوعي الكبير بدينهم، وبما يحيط بهم، وبشؤون مجتمعهم، وهذا لا يكون الاّ حين تكون المرجعية التي تبعث رسلها الىٰ الناس مرجعية رائدة، متصدية، واعية، بصيرة، مؤمنة بالتصدّي، مستعدة لتحمل أعبائه، غير حبيسة في طوق الفتوىٰ والبحث الخارج، والصلاة اماماً، وجمع الحقوق الشرعية، ولمّ شمل الاعوان والحاشية والمريدين، وترتيب أُمورهم، والقيام بالمشاريع التي تدعم الوجود الخاص.

وكان (رض) يوصي الوكلاء لحفظ شخصيتهم، واعتبارهم في جماهيرهم الاّ يقتاتوا مما يهبه لهم المحسنون، ولا ينتظروا من الناس اسباب عيشهم، إذ إنّ المرجعية يجب ان تؤمّن لهم هذا الأمر الكبير، وان تعزّز مقامهم في الأمّة بترفعهم عن الاحتياج المادّي اليها.

وكان يعطي وكلاءَهُ مايكفيهم لتأمين عيشهم واعانة المحتاجين من ابناء مناطقهم. وكان هذا امراً رائعاً لوىٰ أعناق العجب اليه، ومنح من فضله الوكلاء العون علىٰ أنْ يحفظوا عزّ شخصياتهم ودورهم من ان يذال بالافتقار الىٰ مافي ايدي الناس.

د- لقد كان الوضع الخلقي للمرجع الشهيد ثورة علىٰ القديم المألوف في الحوزة، وكانت فضائله قدس الله نفسه الطاهرة انتفاضة عظمىٰ هزّت رُكام المعتاد الجاثم علىٰ سمعة الحوزة واعتبارها،فانبعثت من تحته شخصية جديدة اسمها (المرجعية المؤهلة للقيادة، المتصفة بصفات القادة الصالحين السائرين علىٰ خط اهل البيت) وقد حَفَدَتْ القلوب مشوقة والهة الىٰ احتضان هذه المرجعية، والذوب في تقديسها واجلالها، واستذكار الملامح النورية لأسوتها واصلها، وابداء الاهبة الكاملة لافتدائها والتضحية في سبيلها عن طريق هدفها.

لقد اشرقت تلك المرجعية بخصائص الزهد في الدنيا، والانصراف الىٰ شأن الجهاد، واعلاء لواء الاسلام، والاهتمام بشؤون القضية الاسلامية

الكبرىٰ في العالم عموماً وفي العراق خصوصاً، والتواضع الفريد الذي شهد له بأنه عظيم النفس، اذ هو يرىٰ ان الشخصية الكبيرة إنما تعظم بشموخها الذاتيّ ودواعي العظمة الواقعية لا بالعناوين والألقاب والمظاهر، فكان أبغض شيء اليه ان يرىٰ من مشاهد التعظيم له او يسمع من كلماته، حتىٰ انه كان يأبىٰ ان يسجل علىٰ كتبه التي يزهو بها الفخار ويتوّج بها رأسه غير اسمه المجرد دون زوائد يراها لغواً فارغاً تمقته نفسه العالية المترفعة.

واذا أحست النفس الصدرية العظيمة المدركة أن لها مايميّزها من غيرها من خلال العظمة وشمائلها، عظمت فيها روح المسؤولية فزادتها املاً وهمّاً وسعياً، ونشطت همّة الشكر والثناء لواهب ذلك العطاء، وزادتها خشوعاً وضراعة وانقطاعاً، فأنّىٰ لها بعد ذلك ان تنازع الله رداءه، أو تستعلي علىٰ عباده، وقد أمرت بخفض الجناح لهم، وقد ائتمنت علىٰ استصلاحهم وهدايتهم؟

كان من سجايا مرجعيته الكريمة الانفتاح علىٰ ابناء الامة علىٰ مختلف اوزانهم وأقدارهم، والحديث البشوش مع صغيرهم وكبيرهم، ومخالطتهم مخالطة الاب الشفيق الرؤوف يحنو عليهم ويسعهم باخلاقه الرفيعة، ويسقيهم من معين الطافه وشفافيته، وخفض جناحه كؤوس الارتياح والانشراح، لم يحجبه عنهم حاجب، ولا اسدل بينه وبينهم ستار، ولا طوّح به عنهم طلب الراحة ونشدان العافية، فهما مقرونان برؤيتهم وراحتهم

وعافيتهم.

وكانت سجية المعاناة في سبيل الله للقضيّة وللأمة، وخوض غمرات الآلام، وتجرع مرارات التهام، ومكابدة اغلال المعاصم واطواق السجون، وسماع قاصف الوعيد والتهديد، والملاحقة والمراقبة ومطاردة الاتباع والاشياع، كل اولئك كان دليل الاكبار الىٰ نفوس الناس يحتازها لهذا المرجع المكابد.

قد جفا الراحة مذ رآها عناء دينه ومتاع الغافلين، وقلا العافية مذ أبصر فيها بلاء قضيته وحلية طلاب الدنيا، وباين الأمان والقرار حين أحس ان قضيته مروعة مكروبة).

وكان مَعْلَمُ الشجاعة والاقدام من معالم عظمته الشخصية التي حبّبته الىٰ القلوب، وامكنته من أزِمَّتها. وقد كان جريئاً مقداماً باسلاً يصرخ في الباطل، ويزعق في وجه الفتنة، وينادي برفيع النداء، يدعو الىٰ هدىٰ السماء، ويحرم طريق الظالمين، ويجعله من الركون الشائن والغي المبين، ويفجر رعوده المزمجرة في الطواغيت تصك اسماعهم، وتهز عروشهم، وتنأىٰ عن عيونهم بطيور الكرىٰ في سهاد مرٍّ ذميم لايبرح ولا يريم، ويغرقهم في خضم الاهوال حين يعلن النصرة والولاء لدولة الايمان التي قامت علىٰ ثرىٰ ايران غير هياب من غب ذلك، وهو يعلم أنّ فيه مضاعفات الاوصاب والاتعاب، وأنه المرشد

الهادي الىٰ قعر الزنزانة، أو عـناق السـيف، او مسـاورة الكـربات والنكبات.

كان ذلك الثائر أبيّاً رافضاً لايذعن للظلم شيئاً من الاذعـان، ولايلين للبغي نزراً من اللين، ولايُداهن، ولايـصانع، ولايـضارع، ولايحابي، ولا يداجي، ولايتّقي كغيره اذ التقيّة عنده اكـبر المـناهي والمحرمات، وغدت المجـاهرة بـالعداء والسـطوة اعـظم الفـروض والواجبات، ولاينزغه التسليم بنزغ يستعيد منه بالمقاومة والثبات، وان فعل فحسبه بهذين ملاذاً ومعاذاً. ولا يـنفث في نـفسه خـنّاس الاعطاء باليد ووسواسه، فبيعته للإِباء الطفيِّ في حماسة عاشوراء بيعة واثقة لاتنكث.

وقد شُغِف الأُباةالاحرار بهذه السجية الصدرية، ودانوا لصـاحبها معظمين مبايعين، وأَوْلوه الإِكبار الفرد والوفاء الذي لاشفع له، ومشوا قبله وبعده علىٰ منهجه الىٰ السجون والمقاصل، كأنهـم الرواسي الشمّ رسـوخَاً وثباتاً، فقد تأسَّوا بسيدهم فأحسـنوا التأسي، واحـتذوا مـثاله فأجـادوا الاحتذاء.

وكان في صفاته الباهرة (طاب ثراه) أنه مرهف الحس الايماني كأنه مذاب احاسيس.

شفيف الشعور رقراقه لله وللمحرومين.

واثب القلب للانفعال والتأثّر لحال الاسلام والمسلمين كأنه لم يعرف التجلد والاصطبار.

غزير الدمعة لنكباء الأمة وحوازبها، كأن دأبه تهتان ماءِ الشؤون.

فائر الزفرة تتلظىٰ بين جنبيه وقدتُها.

سريع العبرة كأنه قد اضطمت جوانحه علىٰ قلب والهة ثكلىٰ يحرك الشجن المستفحل يستثير المآقي ويحفزها الىٰ البدار.

وحين تراه كذلك تعجب منه، وله، حين تراه في مواضع أخرىٰ عَصِيّ الدمع، رابط الجأش، صخري الاحساس. وحين تسأل الحكمة البالغة عن المغزىٰ تجيبك (ان الصدر ذوب شوق وضراعة، وضرام عشق وعرفان، وآغيات حب ووفاء لربه ودينه وأُمته، فماله لايبكي ويأسىٰ، وتحترق احشاؤه بنار مشاعره واحاسيسه المرهفة؟ وهو مع ذلك منتهىٰ اقتدار الامتناع علىٰ الحزن والأسىٰ عيّت به سطوة الشجون، وغاية سعي القسوة الأبيّة، والعناد الرافض استعصىٰ حتىٰ علىٰ ريب المنون، ووسع هذا الفضاء الممتد جموداً وتجلداً وبعداً عن التأثر والانفعال خوف غب الشماتة من الاعداء، والمساءة للاولياء، وحيث يكون ذلك هو مصلحة الدين وغبطة القضية، ورغيب السياسة الواعية المدبرة، ومطلوب فرض المؤمن ان يكون بايمانه واحتسابه وصبره وقوراً في الهزاهز، صُلْباً في العاديات، جميع الفؤاد

في المحن، ساكن النفس في الكربات، لايذل عزمه للفواقر المنكرة، ولا تلين قناته حتىٰ لما يذيب الجلاميد من الخطوب).

انها الحكمة الصدرية التي تـدري بـبصيرتها الثـاقبة كـيف تـصنع المواقف، وتجسّد الاحاسيس في مواضعها، وتصيب في حسـن تـصريفها وتدبيرها مواطن الرشد والسداد.

واذا ظاهر هذا غيره من فضائل الامام الشهيد ومحامده التي طلعت شموساً زاهرة، كان ذلك ادعىٰ لبيان حقيقة تلك الثورة الصدرية الباهرة التي صنعتها شمائله السامية، وسجاياه العالية في وجود الحوزة العلمية.

مسلك العارفين

(نقصد في هذا المسلك أن المولوية الذاتية الثابتة لله سبحانه وتعالىٰ لاتختص بالتكاليف المقطوعة بل تشمل مطلق التكاليف الواصلة ولو احتمالاً، وهذا من مدركات العقل العملي، وهي غير مبرهن عليها، فكما أن اصل الطاعة للمنعم الخالق مدرك اولي للعقل العملي غير مبرهن، فكذلك حدوده سعة وضيقاً...).

هكذا عرّف الصدر الاصولي البارع مسلكه الفذ في الاصول (حق الطاعة)، اما ماذا قال الصدر العارف عن فلسفة هذا المسلك؟

قالت روحه: ان للمحبوب ذوب الطاعة، وفناء الانقطاع والتعلق، وانصهار الوله والهيام، ليس في الصبر علىٰ الواجب وعن الحرام فحسب، بل في عصمة تحاكي عصمة الانبياء الكرام الذين عرفوا حرمة الحق فأدَّوْا حقيقة الفرض.

قال قلبه: إن البحث عن برهان حق المولىٰ، كالبحث عن دليل المسلَّمات. والضروريات ولايفعل ذلك الاّ من سفه نفسه، وضيّع حظه من الرشد ومسكة العقل.

قالت نفسه المتيمة: ان همّ العاشقين النأيُ عن مكروه معشوقيهم، والسعي الىٰ ارضائهم، فكيف بمن عشق سيد الكائنات ورب البرايا، بارئ العشق، ومن دنّف بهواه قلوب العارفين.

وقالت هيبة الباري في قلبه: إنّ حق مهاب الكون في الطاعة لايقاس

بحق اي مهابٍ سواه تلتمس عنه المعاذير، وتقبل فيه التبريرات، ويلاذُ عنه في ظل المندوحة والسعة قاهر، وان خشية قاهر الوجود ومن بيده المقاليد لاتقاس بخشية العبيد المقهورين والارقاء المربوبين التي قد يُستهان بها، وتطلب المخارج عن لوازمها بالعصيان وتقحم الشبهات، او بالاوهام والاحتمالات.

وقالت نفسه المبرّأة من معابة أُلواث الحب وادرانه اذ لاتحمل غير الصفاء والنقاء في الهوىٰ العجاب: إنّ صدق الحب هو في طاعة المحبوب كما هو اهله بحكم عقد الهوىٰ المقدس في القلب الصادق الذي ينشد الذرىٰ في الكمالات، ويطلب المعالي في منتهىٰ الدرجات، فمن كذب الحب او فرّط فيه فقد ابطل العقد، وبتر العلقة، واوهق نفسه في ذل الاستهانة والاستخفاف.

وهكذا قالت مشاعره المنسابة الصافية كسلسبيل زلال من عين قلبه الدافقة بالهوىٰ الاقدس الغلاب.

وقالت أمانة روحه الخالصة المنقاة نقاء التبّر من اشوابه قد صفّتهُ نار المجاهدة والاصطبار في حمل الأمانة: ان لؤم البشر في ان يقيسوا سجايا التعامل مع المخلوق بسجايا التعامل مع الخلّاق، وذلك هو الظلم الذي لايغتفر بحكم العقل الرصين الذي يعرف بنظره الصائب الثاقب بُعدَ البون بين حق الخالق وحق المخلوق في الاجلال والاكرام، وفروض التوقير والاعظام.

وكم يخطئ البشر حين يقيسون متطلبات المولوية العرفية والعقلائية

بمتطلبات المولوية الحقيقية، فيجعلوا فروض المولىٰ الحق علىٰ العباد كفروض الموالي الاعتباريين فيما يظنون او يحتملون من تكاليف.

لقد قال عرفانه الفذّ الشامخ لاتباع (قبح العقاب بلا بيان) ان الحــقّ الاعظمَ لمدبرِ الوجودِ حق العبودية والشكر، واداء حق الطـاعة أتمّ الاداء واكمله، هو البيان الناجع، والإعذار البالغ، وبه كمال الحجة وتمـامها عـلىٰ العبيد الذين فطرهم بارئهم علىٰ اللهوف اليه، فألزمهم حق تقاته وابـتغاء مرضاته.

ولا يكون ذلك بلزوم درب المعاذير للبراءة فيما عـدا المـعلوم مـن الزاماته، بل ان فرض التقوىٰ يهتف بالاحتياط الرفـيع، فـان اجـابه والاّ ارتحل الىٰ مهاوي التفريط والتضييع، نادباً حظه مع العباد المستخفين بحرمة ذي القوة المتين.

مسلك الحق هذا عبقة القلب العارف تضوّعت في عالم الاصول صيّرها الصدر نظرية اصولية استخدمت اساليب الاستدلال بعد أن فاحت من روض الهيام الأسمىٰ في معاني تلك الروح الزاكـية لهـذا الانسان.

مسلك الحق هذا هو حقيقة التقوىٰ الصدرية تهـفو الىٰ اسـوة الطاهرين بالطاعة والانقياد، وهو اسُ بنائه الفقهي بناه بروح الخشية واليقين.

من قال لعقل الصدر يعاف سنة السلف الكرام التي رتعت في نعيم البراءة في منأىً عن قسوة الاحتياط، ووعثاء الاعتناء بمحتمل التكاليف ومظنونها؟

ومن قال لفكره يتنكب جادة الاقدمين من اعاظم العلماء وعمالقة الاصول الذين رأوا في قبح العقاب نهج الحق وسماحة الاسلام، وروح الشريعة السمحة؟

ومن قال لعبقريته الفذة التي نطقت لها شاهدة بالاقتدار شواهد جمة من شموخ الفهم، وغوص الفطنة، وحذاقة التفكير تتجافىٰ عن المألوف الذي درسه ورایٰ فيه نهج الحوزة، وسلطان مسلماتها، واسّ بنائها؟

من قال للصدر ذلك كله غير قلبه المعمود الذي مافتئ يترنم بتراتيل الهيام، وغير روحه المشوقة التي احتبلها العشق فلا معدىٰ لها عن الانقياد حافدة خلف داعي الهوىٰ يدعوها، فليس لها ان لا تجيب؟

وماله بعد ذلك إذا هو اجاب نداء الغرام الالهي أن لايعاف مسنون الماضين، وفي قلبه اليقين العارف يقول له: دعك من غير ماحقّقه الفؤاد من اوهام العقول، وذرني ومن يعرض عن مسلّمات القلوب التي هي الدليل علىٰ غيرها، كيف يريد لها برهاناً وهي برهان ماسواها؟ وكيف يروم معرفة كنهها، وبها يعرف كنه ماعداها؟

حين يحلّل العاشق المستهام قضية الوجود الكبرىٰ ويردُّها الىٰ

أصلها يراها (بارئاً معبوداً ووجوداً عابداً) الزمه حق المولىٰ بالطاعة بما المعبود أهل له منها، وما هو اهله صدق الطاعة وتمامها في نظر القلب الذي لابد له ان يحتضن جلال البارئ وجماله ينعم من ذلك في رياض السعادة الحق للقرب المأنوس وسبحاته.

ومصداق صدق الطاعة وكمالها لايطلع الاّ من افق القطع سراجاً منيراً يقشع ظلمات الظنون والشكوك في اداء أمانة التكليف بلا خسرٍ ولا تفريط، وهذا هو الذي يُسميه الصدر العارف (مسلك حق الطاعة) وبعبارة ثانية (مهابة البارئ وخيفته واحترامه لحق عظمته ومجده، واجلاله لحق سلطانه وجبروته، والتعلّق به لحق عزته وقدرته، ومراقبته لحق احاطته وحضوره، واداء فرائضه كلها بقدر حق مولويته وسيادته، والأمل لرحمته بمقدار الخوف من سطوته، وحفظ حقوق الإلهية بمقدار ذل العبودية بين يديه، واحتياجها اليه، والهرب منه اليه بمقدار التوسل اليه بطاعاته وقرباته، والحذر من الوقوع في خلافه ومعصيته لجبروته وسطوته، وطلب الحظوة لديه بكمال الانقطاع اليه، ونشدان ماعنده من كرامة الآجلة بروح التقوىٰ والمخافة في العاجلة، ونصرته بتقواه للانتصار بحوله ورضاه، واقراضه من عطائه وماله، للاستغناء بفضله ونواله.

(مسلك حق الطاعة) مسلك العبودية الكاملة، وطريق التقوىٰ

والاعتصام بذمام الاحتياط، وصون النفس عن الوقوع فيما يسخط بارئها والمتفضل عليها. واي امر يفهمه المتدبرون في القرآن والشريعة غير هذا الامر الكبير الذي هو مخّ العبادة وروحها؟ واذا كانت الخليقة قد وجدت للعبادة، فإن طريق التقوىٰ وكمال العبودية هو قلب الهدف من النشأة الاولىٰ، ولا يُنال ذلك الاّ بالتماس الذرائع لرضىٰ المعبود، واجتناب السبل الىٰ ضدّه.

وكمال ذلك وتمامه بإتيان حتىٰ محتمل مطلوباته، والانصراف عن محتمل منهياته لحقه الاعلىٰ في أنْ يُطاع اتم الطاعة، وان لايستهان به كما يستهان بمخلوقاته، وان لايعامل وهو المولىٰ الحق بما يعامل به الناس بعضهم بعضاً، فما بين الاله والمألوهين من مدىٰ الفرق لايُدرك بفهم، ولاينال بعلم.

واذا اختصرنا الفواصل بين غاية الخلق (العبادة) ولازمها الاكيد (الاحتياط) كان (مسلك حق الطاعة) هو الهدف.

ان وجدان الصدر يقول له: ان العاقل لايرضىٰ ان يساوي بين العبيد ومعبودهم في الحقوق، وطبيعة التعامل واساليبه، ووسائل طلب الرضا والمحبوب، واجتناب السخط والمكروه، فيتيه سادراً في إغماض البراءة، وتسويغ عدم البيان، ومعاذير التساوي بين المولىٰ الحقيقي والموالي الاعتياديين في حق الطاعة عند الارتياب، فيقعد مكبلاً باغلال تلك الأوهام الساهية دون حسن الاداء لكمال المطلوب من فروض ربّ السماء.

وكأنّ ما يعتذر به البشر فيما بينهم مما تعارفوا علىٰ قبوله من الاعذار، واصطلحوا علىٰ قبوله من وسائل فراغ الذمة، تفك عنها طوق الاشتغال، وبقاء الفرض في العهدة - يصلح ان يكون عذراً الىٰ سيد الكائنات ومالكها بما تتضمنه سيادته الكبرىٰ ومالكيته العظمىٰ من هيبة الالوهية الداعية الىٰ رعاية حق المهاب بمقدار هيبته، وحفظ حمىٰ الاحترام من معرّة التجاوز والانتهاك، وصون مجد التوقير والاكرام من ان يذال، والذب عن راية العبودية التي يجب ان تنتصر بصدق الطاعة لترتفع شامخة علىٰ هامة الظفر في معركة الابتلاء.

مسلك الحق هذا طريق الاصفياء الذين يحوطونه من ان يضيّع بالتجافي عن المكروهات، واستباق المستحبات واستقصائها لمعرفتها والعمل علىٰ نورها، فاذا قصروا في الحياطة عدّوا أنفسهم ظالمين، وطلبوا عفو ربهم، لانهم لم يصونوا أمانة الواجبات والمحرمات معلومها ومحتملها حين تجاوزوا السياج الذي نُصب دونها (سياج المكروه والمستحب)، ولم يقفوا بعزم الصابرين عند حدود العرين المقدس للفرائض التي اراد الله ان يدفع عنها لوث الامتهان بما دونها في حبِّه وبغضه، وإلزامه ونهيه، مما احب او كره من الوان السلوك والعمل.

وحين يكون منحىٰ ذلك العارف العملاق هو منحىٰ (حق الطاعة) فلا ريب ان يكون سلوك صاحبه متناغماً مع الاعتقاد، مصبوباً في قالب

المنهج، ليكون عسجد الاعتصام الذي يُصفىٰ بنار مبدأ الاحتياط فيخرج انقىٰ من النقاء واصفىٰ من الصفاء.

ولابد ان يكون دأب الرجل تركاضه في دروب الغرام الآسر يبحث عن حبيبه بالوسائل، وينشد قربه بالمصاديق، ولا يغادر صغير المحبوب ولا كبيره. لذلك المعشوق الاّ احاط به سعيه ونصبه، وحالفه جهده وتعبه.

فلا عجب ان يتفرد في الدأب والفضائل من تفرّد في النظر الىٰ حق ربِّه.

ولا غرو ان يكون وتر الصلاح والمجاهدة والعقبىٰ من كان وتر الاعتقاد بحرمة المولىٰ العظيم ممتدة امتداد المهابة، فريد الرأي فيما للباري علىٰ عباده من الحقوق والواجبات منداحة تتسع لكل التكاليف علىٰ أفانين الوصول.

فأنىٰ له ان يلتقي جفناه بنوم وهي حرمة المولىٰ يطلب حفظها حثيثاً؟

وانىٰ له ان يجانف السهاد الشريف وهو حق رب العالمين قد عشقه عشق الالتزام؟

وانىٰ له ان لا يهطع مشغوفاً بعقبىٰ الاعتصام بحبل (حق الطاعة) الىٰ المنحر المقدس الذي يقضي عنده شهيداً للحب والوفاء، وقتيلاً للصدق في الولاء.

الهم المقدس

لماذا أَسهره الحب؟ وايُّ حب أسهره؟

لماذا دنّفه الوجد؟ وأيّ وجدٍ دنّفه؟

لماذا أرِقَ الليلَ الطويلَ يسامر النجومَ المثقلاتِ في نَدِيِّ الدموع والآهات؟

لماذا مزج الروح اللهوف بندىٰ السحر الهامس في سمعها بترانيم الخلود؟

لماذا أذاب القلب الواله في مصهر يتلظىٰ بحرِّ الأشواق الطهور ينشد منتهىٰ لذاته في غاية احتراقه؟

لماذا عاف بسمة الايام، ونضرة الاحلام، لكلوح الآلام، وعوسج التهيام؟

لماذا أهبط النفس من ذرىٰ هواها حيث الأماني الوردية تبسم عن ثغر الطموح؟

لماذا نسي نفسه لغيره حتىٰ اوشكت ان تظلم، ونذر وجوده لشيء اسمه (الأمة) فكابد للنذر اهوال الحياة، ولم يجد مندوحة للتحلل بكفارة المعاذير والتبريرات؟

لماذا ضحّىٰ بامجاده الزاهرة بألق العزّ والكبرياء في علياء الشموخ، كأنّه حرام عليه ما أباحه غيره لانفسهم، فرتعوا في روضاته وادعين ناعمين، وذبّوا عن الوسن الأخّاذ في احضانه بما أوتوه من

قواهم وقيمهم؟ بيته الذي صيّره نصبه المقدس، وهمّه الشريف قبلة القلوب، وكعبة الأرواح، صيّره عشقه الاوحد للإسلام مباءة الهموم ومرتع الحسرات، قد أحلسه الخوف، وطوّقه السيف، فليس ثمة كوة ينفذ منها نسيم الراحة، ولا ثغرة يعبر منها شميم الأمان. النفوس الشريفة التي كان لها عليه حقُ الرعاية في هذا البيت لم تشرب الاّ كدر الحياة الدنيا ورنقها، ولم تطعم الا جشبها ومرها، ولم تلبس الا قسوتها وسوءها حين دلّها هاديها علىٰ فلسفة (الضد) ملقياً في روعها وسمعها في وحي واصب ونداء متصل (ان مرارة الدنيا حلاوة الآخرة).

تلاميذه الذين جذبتهم اليه جاذبة الخلق الرفيع والعلم البديع، لم يجدوا عنده مايجده غيرهم لدىٰ سواه الاّ افكاراً حوزوية متعالية، مازجتها افكارٌ أعلىٰ من (علم القضيّة)، وابداعات علمية محيِّرة، اعتنقتها ابداعات اسمىٰ من عطر الدم الفواح، وعبير أغلال المعاصم. وكانت بسمة فتوحاته الفكرية الطافحة علىٰ وجهه ملفعة بثوب الأسىٰ الأسفع، وقلبه الأسيان قد اخذت عليه هموم الاسلام القدسية اقطاره.

وعاد درسه وعلمه طريقاً الىٰ الهدف حفّت به الخطوب النكر علىٰ اثباج الشجىٰ في بحر لُجِّيٍّ هادر يغشاه موج من فوقه موج، كأنّ أواذيه رؤوس الشياطين، وكأنّ اعماقه هول الموت ورعب القبور.

وترنم الصدر يقود قافلة الصابرين يهزج بأناشيد المكارم يشنِّف

سمعها بالنغم الآسر، ويسكر قلبها بصهباء هم الوصال، ويسحر ابصارها بأبهى مرأىً لعقبىٰ الاصفاد (شرف الحياة وبهجة الأمجاد).

ومشىٰ علىٰ الدرب الشائك المتلظي، يحرقه الجمر فلا يجد له الاّ لذةً فاقت الوصف لأنها لذة العارفين، وتخزهُ الاشواك فلا يحس الاّ ملمس الانس والحبور، وتشتجر عليه السيوف والرماح فلا يرىٰ الاّ عرائش الجنان، وخمائل النعيم، وتتكثف ظلمات التبريح والايلام فلا يبصر الا ضياءً خالباً من سراج قلب عارف منير، اذا اشتدت عليه دياجير المحن تألّقت أنواره، واشتدّ سطوعها.

وفي الليل الأيهم يعظم سلطان الضياء، ويعرف قدره.

هدير الرعود كالانغام، ودوي الحرب كأهازيج السلام، والوعيد الغاضب كهدهدة الام الرؤوم، وزعزع الاعاصير نسائم فاحت من احضان الرياض باروع الشميم، وحمم البراكين المنهدّة من قلب الحقد الفاجر نفحات سكينة وادعة بلطف غامر.

لقد غيّر قلب الصدر الأحاسيس عن الحياة كما غيّر فكره مفاهيم الواقع، وابتدع لها شعورها الجديد، كما ابتدع عقلُهُ نهجَها الفريد، وعاد قلبه يراها بعين عرفانه الأشم، كما عاد لبه ينظرها بباصرة رأيه المجدّد الاعظم.

فعادت الحياة لدىٰ الصدر ثورة الفكر والابداع بابهىٰ حلل الفلاح،

وثورة الجهاد والتضحية بأروع لذائذ الفتح.

فبماذا يعالج الاعداء هذا الداء العياء؟

وبماذا يكبلون لذّته، ويأسرون بهجته؟

وبماذا يعذّبونه من وسائل العذاب حسيّهاً ومعنويّها يشُلّ القوىٰ، ويسلب القدرة، ويُديل الهمود من الانطلاق في الباحات، وينتصر للإخلاد الىٰ الارض من التحليق في آفاق الهمم والتضحيات؟

يدعو الىٰ أنس الحياة، ولذة العاجلة، وزخرف الاوهام، وبهارج العرض الذاهب.

لقد كانت مصيبة خصومه في فكره العملاق الرافع الذي استمطر شآبيب العظمة في فكر الإسلام شموخها وجِدّتها المتصلة فجادت بغيث انعش الارض الموات لواقع امة تحجر في مفاوز الحجب والإقصاء عن لطف السماء، فازّيّنت تلك الارض بأزاهير الفكر المبدع الخلاّق، وتشممت العقول عَرْف الحقيقة القرآنية التي حجبت، ورنت القلوب الىٰ جمال الروح الإسلامية التي أقصيت، فثارت العقول ثورة الرفض للواقع هادرة كالبراكين، وانجذبت القلوب بسحر مارأت جذباً لايحول بينها معه وبين المحبوب المطلوب حجاب مستور، ولا سيف مشهور.

سل الصدر كم داهمته المروّعات فما ارتاع؟ وكم هجمت عليه الخطوب فجالدها بالاحتساب فارتدت علىٰ الاعقاب؟

وكم تجهّمت في وجهه الدنيا الحرون وأعوانها الجاهلون فلاذ بالصبر الحنظلي يداوي به داء الجفاء، واعتصم بالحلم المحمدي يثاور به طيش السفهاء؟

سجايا ورثها من آبائه الاكرمين عبر الاصلاب والارحام، وعشقها فالتزمها لانها تسمو به كما سمت بآبائه في المفاخر الىٰ أعلىٰ مقام.

هكذا يخلق الله ما يشاء ويختار لأمانة الرسالة ولوازمها من الأذىٰ والاحتمال. قلوباً مقدّسة صخرية في الملمّات كأنها الحجر الجامس، وجسوماً مكرمة يطيب لها معانقة السياط، وهمماً شماء ترنو الىٰ العزة القعساء، فما ونىٰ بها فتور ولا قعد بها خور.

كيف ذلك ومعدنها ومستثارها نفوس خامرها العشق، وقلوب شغفها الله حباً، قد استعصمت بتوحيد الهوىٰ فأوترت ولم تشفع، واستمسكت بعروة الاخلاص فنزهت سر السِّر عن اهون أغباشه، وتعلقت بحبل الوفاء فسمت به الىٰ كرامة البلاء سحاً واصباً بلا انقطاع، دَرَاكاً متصلاً ككفتي الميزان، لأنّ بلاءها علىٰ درجة ايمانها، وفتنتها علىٰ مقدار اذعانها، حتىٰ ترقىٰ علىٰ جناح المكاره المستصفية الىٰ مقعد التسليم واليقين، في غمرة النور المبين، للحق المكين.

اسوة العلم والعمل

ثمة امر في حياة الامم من دهر الدهور لوجودها علىٰ الارض، وما كرّ عليها الجديدان هو اسُّ ثباتها ودوامها، وعماد رشدها وسدادها، وركيزة صلاحها وفلاحها، به تحيا حياة السعداء، وبدونه تفنىٰ فناء الأشقياء، وقد اثبت تاريخ البشرية ان هذا الأمر هو الاهم فيما تحتاج اليه في وجـودها في معمورتها، والاكثر تأثيراً فيها سعادة وشـقاءً في وجـوده وعـدمه، وانّـه روحها، وسرّ الوقدة الالهية التي تنعشها في شوط الحياة، لانه الهدىٰ، بـل قلبه الذي بين جوانحه، وهو عصارة الرسالة وخلاصتها.

ذلك هو (الاسوة الحسنة المربية) و (القدوة الطيبة الهادية) التي بهدىٰ سلوكها يهتدي الناس قبل هدىٰ لسانها، وبسراج فعلها يستنير الخابطون في الظلماء قبل نور بيانها، وبوحي تجسيدها للوحي تهتز الأمة للإيمـان قـبل اهتزازها له بالآيات والمعجزات.

لان الامة لاتنظر في الرسالة قبل ان تنظر في الرسول، وهي قبل ان تحقق في الهدىٰ تحقق في الهادي، وقبل ان تعاين محاسن الرحمة المهداة تعاين شخص من بُعث بها.

ومن هنا لم تسمع فتذعن لسلطان الوحي القرآني فتقول انه الوحي المبين، قبل ان تسمع فتخشع لوحي السجايا الزُهْر في (محمد) فـتقول هـو الصادق الأمين.

ومن شأن الأمة أنها لاتسلِّم مقودها الاّ لمن يأسرها بـفعاله قـبل

كلماته، ومن يستحوذ علىٰ قلبها بخصاله وعمله قبل مفاهيمه ومُثُلِه.

فاذا وجدت صدق الداعي صَدَّقَتْه الاستجابة بلا شوب، واذا أحست أمانة الدليل ائتمنته قلوبها وأرواحها بلا ريب، ومشت خلفَه مشيَ الاخلاص والوفاء، تبذل النفوس والدماء.

وقد فاز هذا الأمر الكبير (الأسوة الحسنة) بحفاوة الشريعة قرآناً وسنة، تأكيداً منها عليه، وحضاً علىٰ التزامه وجعله مناراً، وطريقاً للهدىٰ، وسبيلاً للخلاص.

في القرآن الكريم ﴿لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم والآخر وذكر الله كثيراً﴾.

﴿قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه﴾.

﴿اولئك الذين هدىٰ الله فبهداهم اقتده﴾.

وفي السّنة المباركة (الا وان لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه).

(كونوا لنا دعاة صامتين).

لقد جعل الله هذا الدور المهم للقدوة في مسيرة البشر علىٰ عاتق الانبياء والهداة الذين يختارونهم معهم او من بعدهم من الاوصياء والائمة والعلماء، يحملون اثقال ذلك الدور العظيم التي لاتعادلها الاّ أثقال الرسالة، بل هي عينها ما دامت القدوة تعني ان يكون صاحبها رسالة مجسّدة، ونهجاً

مجسماً، وطريقاً الهياً يمشي حياً علىٰ الارض في وجود الانسان الأسوة، فهو في منتهىٰ الصون لنفسه عن المزالق والشبهات، يدعّها دعّاً عمّا يشينها، ويسقطها في عيون الناس، ويزعّها عن ان تخسر عرشها في القلوب وسلطانها علىٰ النفوس، أو أن يفلت منها زمام الاقتدار علىٰ تحريك اهل ودِّها واجلالها الىٰ الهدف المنشود الذي جعلت له قدوة تقتدىٰ ومثالاً يحتذىٰ. فاذا دخلت ذلك الشين خسرت نفسها وربّها، وفقدت هدفها وامَّتها، ونالت الحرمان والعذاب، لانها نقضت الميثاق الغليظ الذي اخذه الله منها ان تكون منار الأمة في المتاهات، ودليلها في المفاوز، ورائدها في المسير، وهاديها علىٰ الدرب، ومنقذها من الفناء الحقيقي وذلك هو الضلال.

النبوة والإِمامة تعنيان الأسوة والقدوة وكأنهما كلمتان مترادفتان.

فالهادي هو المقتدىٰ، والدليل هو الأسوة، يعمل بما يقول قبل غيره، ويفعل مايوصي به مستبقاً اليه من سواه، وينتهي عما ينهىٰ عنه قبل المنتهين، ويأتمر بما يأمر به قبل المأمورين، ولا يدع خلّة حميدة يحبِّبها الىٰ الناس الاّ كانت لباسه وزينه، ولا يذر خصلة سيئة ينفِّر الناس منها الاّ أبىٰ ان تكون رداءه وشينه، فاذا به قد اصبح سلوكه ينطق قبل كلامه، وكلامه يعاضد فعله، وصمته يهدي كبيانه، وحكمته الناطقة منيعة الجانب، عزيزة بشاهدها الحي من عمله، وهديُهُ باللسان سالك الدرب الىٰ الافئدة بسلطان التزامه بهداه.

فليس هو بالذي يأمر الناس بالبر وينسىٰ نفسه، ولا هو بالذي كبر مقته عند ربّه لقوله مالا يفعل، ولا هو كالحمار حامل الأسفار لايعي منها شيئاً، ولا يعمل منها بشيء، ولا هو كالذي آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان، واخلد الىٰ الارض فصار مَثَلُه مَثَلَ الكلب اللاهث ان حملت عليه او تركته، بل هو كالشمس، غمرة نور تشع بالضياء، وكالروض محفل ورد عمّه الاريج، تضوّع عطره ينعش قلوب المتشممين، وفاضت زينتُه تؤنس اعين الناظرين.

واذا كانت الأسوة بهذه المثابة من المنزلة والتأثير فلا عجب ان يؤكد الصدر بلسانه داعياً نفسه وطلّابه وأتباعه الىٰ ان يجعلوا من انفسهم بعصمتهم لها، وحياطتهم لدينهم، وتهذيبهم لسلوكهم، أقداءً للآخرين الذين يؤثر فيهم عمل هداتهم قبل كلامهم، ويصلحهم سلوك مرشديهم قبل ارشادهم ولو قرأوا عليهم فيه أبلغ الآيات والروايات، وانهم ليفرون منهم، وينأَوْنَ عن سماع كلامهم اذا اختلفت اعمالهم وأقوالهم، ولو كانوا عمالقة الدنيا في النطق والبيان، وتنضيد الكلمات الحسان.

واكَّد الصدر القدوة عملاً بان عَقَلَ نفسه بعقال الاعتصام بحبل التقوىٰ آسراً لها اشد الأسر في زنزانة الصبر علىٰ الطاعات وعن المعاصي، ملزماً إياها حتىٰ بغير الفرض، نائياً بها عن غير المحظور نشداناً منه ان يجعل نفسه اسوة للآخرين الذين احبّوه وعشقوه وتابعوه، حين توسّموا فيه هادي

الطريق، ودليل الركب، ورائد المسيرة.

وهذا فرضه الأكيد الذي يلزمه به دينه ودوره، ويفرضه عليه مشروعه التجديدي لخليفة النبوّة والامامة ووارثهما وهو (المرجعية الرشيدة) المشروع الذي أراد ان ينتشل ذلك الخليفة الذي خسر دوره السليم دور الريادة الصالحة في الأمة والأسوة الحسنة التي يُحتذىٰ علىٰ مثالها، ويُمشىٰ علىٰ منوالها، في معركة حامية تكالبت عليه فيها من داخله وخارجه ادواء تركته رهين علله، فلا هو أدّىٰ ما عليه لمن استخلفه، ولا هو أمِن علىٰ اعتباره ان تصيب منه كراهية الناس في انفسهم بسهم عجزه وآفاته مقتلاً.

وجسّدَ الصدر مصداق المرجع الذي يريده في مشروعه، فكانت خصال هذا المنقذ خصال العاملين، وكانت سجاياه سجايا الصالحين الذين عرفوا الله وحرمته وحقّ طاعته، وللإسلام قدرهُ وشأن امانته، فنذروا انفسهم صادقين لصون الحق، واداء الأمانة، فكانت نفسه اسيرة ما تعلم قبل ان يفضي بعلمه الىٰ احد، وكانت روحه في غلِّ الالتزام قبل ان يدعو غيره الىٰ أغلاله المحررة، وكان سيِّد المتعظين قبل ان ينبس ببنت شفة واعظاً.

جاهد نفسه فانتصر، ثم دعا غيره الىٰ المجاهدة والانتصار، وغالب اهواءه فغلب، ثم هتف بسواه الىٰ مغالبة الاهواء.

لقد وحَّد الصدر توحيداً فريداً بين عقله وسلوكه، وبين قـلبه وخطاه، وقرن العلم بالعمل، والمعرفة بالسعي، فما باين بـين مـبادئه ومسيره، ولا خالف بين مـفاهيمه واخـلاقه، ولا نـافَرَ بـين القـول والفعل، ولا باعد بين وصايا اللسان ودأب الاركـان، ولا اخـتص نفسه بالمندوحة اذا اختار لسواه العزيمة، ولا شدّد علىٰ من عداه وحبىٰ نفسه بالسعة، وما اخذ علىٰ غيره عهد التقيّد ليَذَرَ نفسه سارحة بلا وثاق.

دعا امته الىٰ اعباء مسيرة وكـان اسرع مـنها الىٰ مـادعاها اليـه، وناداها هاتفاً للعمل للإِسلام، ويداه توشكان ان تغلاّ بالكبول، وصرخ فيها للجهاد وقد صمَّم علىٰ الشهادة تصميم الرِّجال، ومشىٰ يخطو علىٰ الدرب الدامية الحمراء يزعق فيه الحاقدون، ويدوِّي في سمعه قصيف الوعيد، وتقوم نصب عينه شجرة العداء كريهة مخيفة، ويجرّ الىٰ المعتقلات، ويُحاصَر في داره علىٰ حال ترق لها الجلاميد، فلم يتبدل حال الجهاد حالاً غيرها، ولم ينزع وسام شرفها، ليتخذ بدلاً منه وصمة الذل بالقعود والاستسلام بتسويغ من هجعوا آمنين من المعذِّرين.

في المسيرة التي كان يقود فيها الصدرُ الأسوةُ ركبَ الصلاح، كان دأبُهُ سِرَّ ظفره بالقلوب، وكان سعيُهُ معجزتَهُ التي قهرت النفوس فاعطته ازمتها.

وبعض سيرة الصدر التي استثرتُ عبير روضها الفواح في الصفحات

الماضية هو بعض محاسن تلك الأسوة ومفاخرها في الالتزام الذي لابد لها منه كي تكون مشعل الهدىٰ وقدوة الصالحين علىٰ نهج رسمه له جده امير المؤمنين: (من نصبَ نفسه للناس اماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تـعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها احق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم).

الحصار

وتشتد مع الامام الثائر حال العداء من عدوٍّ فاجر، وتؤوب هـذه الحال الىٰ شر مآل، فتحيط به مخالب الطغاة الجفاة كأنها انياب الحـيّات، ويطلع عليه الشر بوجه منكر، فقد استغلقت احبولة الصائد الظافر حـتىٰ اوشكت أن تسدّ عليهم منافذ النسيم لا تحـور ولا تـريم، واوصـدت في وجوههم باب الحيلة للخلاص من هذا البلاء المارد الذي غزاهم بهوله في كل الموارد.

وكانت منهم معه حيلة العاجز الواهن الذي لايقوىٰ علىٰ مـقاومة الحجة بالبرهان، فلم يألف الناس في ايام حكمهم غير السـجن والسـيف والخوف، تُخرِسُ افواه الحجج الباهرة، وتقطع أعناق البراهين القاهرة.

واغلقت الباب علىٰ الامام السـعيد، سـجين بـيته، ورهـين داره، لايفارقها، ولايُزار فيها، فصلاً بين الامة وامامها، وتفريقاً بين المستضعفين وقائدهم.

وينظر الامام حوله ويتطلع فماذا يرىٰ؟

ويسمع الامام ويتسمع فماذا يصل الىٰ اذنيه؟

لا يرىٰ الامام من حوله الا جدراناً صمّاء خرساء قد تضمنتهُ وعياله كما يتضمن الوعاء مافيه، واحضنت عليهم كما يحضن الجسم علىٰ احشائه، وتشابكت اركانه محكمة عليهم كما تتشابك اركان السجن محكمة علىٰ من اودعوا فيه.

قد اوصد الباب فلا ذهاب ولا اياب، الحياة تصخب من حولهم وهم في الدار وادعون، ويعج الناس بالنشاط في كل صوب منهم وهم في بيتهم ساكنون، ويتقلّب الناس في الارض كيف يريدون وهم رهن هذه الجدران لايغادرون. قد اعلقتهم اوهاق الطغاة فلا منجىٰ، واحتبلتهم اشراك الجناة فلا حيلة، فعيون الجبّارين تترصدهم وهم في الطوق الخانق، وتحصي عليهم كل شيء وهم في الحصار المبرم، انهم يخشون الاّ يكف الامام عن علاقته بامته، والاّ يقطع ارتباطه باتباعه، والاّ يمنعه ضيق حبسه وفرط الحرص علىٰ عزله من امره المحذور وشأنه المحظور، وقد قرأوا في تاريخ اجداده الميامين انهم لم يفارقوا اتباعهم قط وهم في الطوامير، ولم ينفصلوا عنهم وهم في الخطب العسير، ولقد حسبوا انهم قد عالجوا الداء بغاية الدواء، ولم يعلموا انه النور لاتحتويه قبضة كف، وانها الحقيقة لايضمّها سجن،وأنه القائد المعشوق تأتيه اشواق القلوب إن عجزت ان تقبل عليه بأنفسها.

ولقد كان للصدر مع امته في محنته لقاء.. ولقاء.

ينظر الإمام من حوله فيرىٰ عياله قد حرموا الطلاقة مكبلين باصفاد الحصار والمراقبة، يتجرعون كؤوس المرارة من قيودهم هذه ولا يكادون يسيغون صابها، فاذا نالوا منه قطَّع احشاءهم، ويحترقون بلظىٰ الغمّاء من حبسهم، تُنضج قلوبهم لاجلودهم، ويخوضون غرقىٰ في اللجج الغامرة للعناء القائم تتقطع فيها انفاسهم.

انها وحشة مبرِّحة بثقل الجبال، وانـقطاع عـن الحــياة والاحــياء كودائع الاجداث، وسكون متِّصل رهيب كأنه سكون القبور، وصمت مطبق ثقيل الوطأة كأنه الموت.

وانىٰ يطيق العزلة من كانوا في غمرة الحياة هـداة مـصلحين؟ وانىّٰ يحتمل الطوق من كانوا يعلِّمون الناس معنىٰ الحرية؟ وأنىٰ يقر عـلىٰ ضـيم القيود من دوّت لهم في الفضاء صرخة الرفض والاباء؟

بلىٰ انهم يصبرون ويطيقون فما خـلقت القـيود الاّ لهـم، ومـا عرفت الكبول معاصم سواهم، ولم تألف السجون غيرهم، وذلك هو المعنىٰ الأعلىٰ من معاني حريتهم، وتلك هي المنزلة المشهودة لآبائهم، وذلك هو المقام المحمود في جهادهم، فما كان هذا ليزيدهم الاّ رضىً به، وشكراً لبارئهم عليه، لانه من كرامـاته ومـواهـبه لهـم، وعـطاياه وبركاته فيهم، وتحننه وافضاله عليهم، ولانه اختصاصهم دون مـن سواهم، واصطفاؤهم دون من عداهم.

لكن الامام ينظر فيرىٰ في عياله صبية صغاراً لايفهمون هذه المعاني السامية، ولاتطير حلومهم الىٰ حقائقها العالية، فكيف لهم ان يصبروا علىٰ ثقل القيود، وهم ورود ناضرة؟ وعلىٰ وطأة الصدِّ عن فسحة الدنيا وهـم براعم حالمة عهدها جديد بالحياة؟ وعلىٰ قسوة المنع عن معاشرة الأتراب والاصحاب ولا حاجة لهم في معاشرة غيرهم؟

وينظر الامام الىٰ مخدرتيه (زوجه واخته) تتعاوران اخراج مايجتمع لديهم من (النفايات) فتخرجه هذه مرة وهذه مرة لتضعه حيث تقوم كلاب البعث بنبشهِ في حضورها نبشاً، وتبحث في اجزائه بحثاً اذ تخشىٰ ان يكون في اطوائه رسالة مدفونة، او ان تحتوي احناؤه وصية مخفية، وتحس الهاشمية لهذا المشهد كأنَّ نصال هؤلاء الاعلاج تقطِّع نياط قلبها، وينطلق للمرأىٰ الأليم سهم نافذ يصمي فؤادها فاذا به افلاذاً تتطاير، فلا تدخل البيت حتىٰ تهوي منهدة اركانها كأنها قد فرغت للتوّ من حمل الجبال، وتسقط من فرط الاعياء، كأنها كانت تصّعّد في السماء.

ينظر الامام حوله فلا يرىٰ ناصراً ينصره، ولا ذاباً يدفع عنه، فمن بايعوه علىٰ النصرة أمسوا بين من سلكوا دروب الاهوال الىٰ حياض الردىٰ، ومن استحكمت عليهم اطباق السجون، ومن هاجروا نادّين عن قبضة المنون، ومن فروا خائفين يترقبون في أرض المحنة، وبين من سكتوا مكعومين لقلة البأس وفقد الناصر.

ويسمع الامام ويتسمع فماذا يصل اليه؟

انه يسمع صراخ القلوب التي ارمضها مابمعشوقها من البلاء وان كان قدْرَه وقَدَرَه، وأجج انحاءها سعيراً ما يكابده من العناء - وان كان شأنه ومحبوبه، ويسمع صدىٰ صيحات قليلة بعدد من بقي من الاباة الثائرين قد كسرت اطباق الصمت الرهيب من هنا وهناك متظلّمة له، ناقمة علىٰ من

ظلموه، آمرةً برفع الحيف عنه، ويسمعها بعد حين قد تحولت أنيناً تحت سياط العتاة، فدعاءً خاشعاً عند اعتاب الشهادة.

انه يسمع لهذه الافواج الهائلة تساق سوقاً الىٰ السجون حيث أفانين العذاب مما لم تره العيون، قد قلّب لهم الجلادون وجوه العناء، وأوردوهم جحيم كل بلاء، استخراجاً لأسرارهم ومضمراتهم، وعقوبة ونكالاً لهم، وفتّاً في اعضاد من سينجُون منهم.

وتستبين الساحة للامام بباصرة قلبه فاجعة بلا مثيل، قد عجت باهوالها، ورزحت بأثقالها، ذئاب تنهش، وعقارب تلسع، وجسوم تمزق، واوصال تقطع، واعراض تهتك، وكرامات تنتهك.

اطباق من العذاب قد جثمت علىٰ صدور الشباب، وعرامات من البلاء قد احاطت كالنار المسعَّرة بالرجال والنساء، لهم فيها من فنون المحن ما يعز علىٰ غوص الفِطن، قد اكتنفتهم غواشيها من فوقهم ومن تحت ارجلهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم، مأساة استعصت علىٰ نيل البال، فظلت رهن الخيال، قد لا يتيقنها من لا يسمع عنها لغريبات شؤونها، وفظيعات احوالها، نُزّالها اموات او كالاموات، وسكانها مرمىٰ الردىٰ واغراض المنايا، تتقاذفهم أمواجها، وتتعاورهم آفاتها، فهم اتفهُ شيء واقله بعين الطغاة، وأبغض شيء لهم في هذه الحياة.

يرىٰ الإمام ذلك بعين بصيرته فيخشع قلبه لجلال ما يرىٰ من شموخ

الايمان في غمرات النائبات، وتذرف عيناه جمراً حَزَناً علىٰ رهائن البلوىٰ واسرىٰ الفاجعات، ويميد ثم يحترق لزلزال الحسرة ولظاها، وتصطفق جوانحه ثم تذوب لغلواء العبرة وشباها.

ثم ينظر في يده الجذّاء فاذا هي من البأس أو العون خلاء، فيأتلف عليه موج الغموم، وتطبق عليه كثافات التبريح، ولولا ذلك العروج الملائكي بروحه الىٰ سبحات الجلال عند ربّه، ولولا اليقين المتين من بارئه، والبينة الواضحة من امره، والبصيرة النيرة في شأنه لقضىٰ قتيل الهموم، صريع الاسىٰ، ضحية الاحزان والأشجان.

ويطلع هنا وجه حقيقة خلقية عظيمة عند الامام قد الفها والفته، وصاحبها وصاحبته، وكانت من كبير فضائله. وعظيم شمائله، تلك سجية الايثار الذي بلغ اقصاه واعلاه، الايثار الذي كان يعني قبل اليوم ان يؤثر غيره علىٰ نفسه براحته وماله وبما يحب.

وصار اليوم إيثاراً يعني التضحية بالنفس فداءً للآخرين. فلقد تفتق المكر البعثي عن حيلة رفع الحصار عن الامام الىٰ أجل مسمىً حددوه في أنفسهم كي يتعرفوا علىٰ زائريه وقاصديه، يحصونهم، ويهتدون الىٰ بيوتهم، او أماكن عملهم، ثم يسوقونهم من هناك الىٰ المقاصل والسجون، فقد حسبوا أَن كثيراً من جند الإِيمان الذين لاذوا بالاستتار بالمدّخلات والمغارات ومن لم يلوذوا سيرون في رفع الطوق عن امامهم اعراضاً من السلطة عن ايذائه،

وابتعاداً منها بسوئها عن ساحته، وهذا قد يغريهم بخلع لباس المحاذرة، وارتداء ثوب المجاهرة، واول فعلهم حينئذٍ زيارة امامهم بعد أيام يحسبونها سنين من الفراق.

ويعرف الامام هذه المكيدة، فلم تمض أيام علىٰ فتح بابه للوافدين، وبعد علمه ببعض حالات الملاحقة والاعتقال لمن زاروه - حتىٰ اغلق بابه بيده متحدياً امر الطاغوت بفتحه، واصر الظَّلَمة علىٰ ان يفتح فأصرّ هو علىٰ اغلاقه، وابىٰ ان يستقبل احداً من الناس، حفاظاً منه علىٰ ارواحهم، وحقناً لدمائهم، ليبقىٰ هو رهن سجنه الاليم يكثّف عليه اطباق الهموم، قد تحدىٰ امر الجبابرة، وقطع عليهم سبيل المكر، وحال بينهم وبين ما يشتهون، ومنعهم من ان يصطادوا به اولياءه، وان يجعلوه احبولة صيدهم، وفي ذلك تسعير لغيظهم وحنقهم، وتأكيد لحكم الموت الذي رأىٰ انهم قد حكموا عليه به سراً الاّ ان يكون عند مواضع رغباتهم.

وكانت تلك من مكرماته التي لاتنسىٰ مدىٰ الدهر، ومحاسنه التي تبقىٰ زاهية تاجاً علىٰ رأس الفخر.

الشهادة

لقد كان للامام في هذه المحنة الحازبة وصال حبيب لمعشوقه قد استغرق وقته، وصَعْدٌ طهور الىٰ ربه قد اخذ عليه ساعات ليله ونهاره، يحس بان هاتفاً يهتف فيه: (قد قرب اللقاء الدائم الذي لاينقطع، وآن لك الإياب المنشود الذي ترجوه، وازلفت لك الراحة الابدية التي لا نَصب بعدها ولا وصب، فما هي الاّكفواقِ ناقة من عمرك القدسيٍّ فيه شيء من العذاب وكثيرٍ من الثواب حتىٰ تعود الروح الزكية الىٰ مستقرها، وترجع النفس المطمئنة الىٰ ربِّها راضية مرضية). ويراها رضوان الله عليه رؤيا كفلق الصبح، صادقة كأنها فعل الحقيقة المشهودة، بشير خير يرتقبه لهيفاً اليه، وآية محبوب ينتظرهقد هام شغفاً به، انه يرىٰ نفسه في مجلسٍ كريم يضمّه بخاله المرتضىٰ واخيه اسماعيل، قد اجلساه بينهما مشوقَينِ اليه، حفيَّينِ به، محبورَينِ للقائه.

ويفسرها هو في اليقظة انها أذان له بأزوف الرحيل الىٰ البقاء، ووعدٌ له باقتراب اللحوق بالملأ الاعلىٰ. ولم يك بين الوعد والموعود وقت مديد، وتمضي الساعات والايام متلاحقة عجلىٰ سريعة الخطا، لتقف بعمر الامام عند النهاية الاّ صبابة يسيرة في كأس حياته الشريفة هي اقل مافي عمره بحساب الزمن واعظمها بحساب الشأن، قد أدّخرت له السماء فيها علىٰ قصرها الأمر الجسيم الذي ما غاب عن باله، ولا كفّ عن طلبه من الله بالدعاء، ومن واقعه بالمجاهدة الدائبة، الا هو (الشهادة) غاية البرِّ ومنتهاه،

واقصىٰ الخير وابعد ما في مداه، ذروة الايمان والتقوىٰ وشاهد الحب والوفاء.

وإن هي الاّ ليلة وجَدَ الامام فيها نفسه قد تخفف حتىٰ شف، وصفا حتىٰ سما، قد تجرّد عن الدنيا واثقالها تجرّداً لم ينقصه الا هـذا الوزر الترابيُّ المسمىٰ (البدن) يحبس روحه عن عروجها الحقيقي، فصار يستثقله وينوء بحمله، ويتطلع مشتاقاً الىٰ الساعة التي يكسر فيها هذا الطوق الخانق، ولو كان في ذلك فظاعات الآلام الدنيوية، ومضاعفات الاوصاب والعـذاب، تنال من ذلك الطوق ولا تنال مما طوَّق، وتـفعل فـعلها في الحـبس لا في الحبيس، وتصيب حظّها من جسد مهدود مكدود، ولا تصيب شيئاً مـن روح ضمَّها ذلك الجسد ضمّ زجاجة المصباح النور، تشـع بـه ولا تـعنيه، وتعكسه ولا تربطها بحقيقته وشيجة.

ويظل الامام ساهراً لايغمض جفناه، ولايـدنو مـن عـينيه طـائر الكرىٰ، قد اسهره فرط السرور الذي يراه يتدفّق عليه امواجاً خضراً من النور، فيها جمال وفيها جلال.

واذهب النوم عنه ما يحسه من دنوِّه قاب قوسين او أدنىٰ من الحياة الاخرىٰ، حياة اليقظة الابدية المأنوسة، فلا عجب ان يتخفف مـن مـعالم الطين الواهنة، يستبدل بها معالم الخلود السامية. وتسمع واعيتاه طرق الباب بعد ظهر يوم السبت ١٩ جمادىٰ الاولىٰ ١٤٠٠ هـ، فلا يشك في انها تباشير الخلاص بدأت تترىٰ، ويسمع الباب يفتح ليـدخل عـليه بـعض اعـلاج

الشيطان يدعونه لمرافقتهم معتقلاً بعد ان رفض دعوتهم له ان يمضي معهم زائراً علىٰ شأن إِبائه ورفضه وشموخه وكفره بطاغوتهم، ودعوته الىٰ الكفر به والثورة عليه. وكأني بالامام ينطلق مودِّعاً اهله الكرام بادئاً بـامه مـنتهياً بصغاره وهو أمرٌ وان كانوا الفوه من قبل الا انهم يحسون له اليوم حرارة لم يجدوها فيما سبق، ويلفون فيه جداً وحزماً لم يعرفوهما فيما سلف.

فكان ذلك ادعىٰ الىٰ مضاعفة الشجىٰ، واسـتعار الاذىٰ، ولولا ان يقطع الامام حديث الوداع بالانصراف فقد خاف غائلة الظن من الجناة انه قد هابهم وضعف بصارف الخوف عن المجيء اليهم، لولا ذلك لكان لموقف الوداع اثر غير الذي كان من ذوب القلوب بحر ناره، وانقطاع الانفاس في غمرة تياره.

ويقبل الامام كالضرغام علىٰ طالبيه، ويبسم لهـم مسـلماً عـليهم، منطلقاً امامهم ينقل خطاه الىٰ حيث اعدوا له (سـيارة) تـنقله الىٰ حـيث يريدون.

وتنطلق الجماعة الغاوية برهينتها علىٰ عجل ووجل مسرعة به الىٰ بغداد، وتبلغ عصبة الضلال غاية مسيرها، وتمضي بالامام الىٰ المكان الذي اريد له ان ينزل فيه ليفتح له عبيد الشيطان باباً أمَّـلوا فـيه كـل آمـالهم، وتوسموا فيه غاية محبوبهم.

انه (المساومة).

ويجيء النهار فيدخل عليه نفرٌ هم مبعوث رأس الضلال اليه، وقد نمَّقوا موقفهم بين يديه بظاهر التوقير والتواضع، وغطَّوْا علىٰ جفاوة السنتهم السليطة، بظاهر الكلام المهذب، وكأنّي بمتحدثهم يتحدث بكلام كثير، يعيد فيه ما طرحه النظام من قبل علىٰ سمع الامام، فرفضه رفض الباسل الهمام (لعلك تعلم ان مبادئ حزبنا منبثقة عن روح الاسلام، وان شعاراتنا التي نطرحها هي شعارات ذلك الدين السمح لكن بلغة العصر، وان الذي نريد تطبيقه علىٰ واقع الحياة في العراق - وفي الاقل في وقتنا هذا - هو احكام الشريعة الغراء لكن بلونٍ متطور رائد يلائم هذه الحياة الصاعدة.

واننا نحب علماء الاسلام وندعمهم ماداموا لا يتدخلون فيما لا يعنيهم من شؤون السياسة والدولة.

فلا ندري بعد ذلك لماذا حرَّمتم حزبنا علىٰ الناس؟ ولماذا دعوتم الىٰ القيام علينا؟ ولماذا أيدتم اعداءنا في إيران؟ ولقد انذرناكم ونصحنا لكم، واعذرنا اليكم في هذه الامور جميعها، غير انكم ابيتم، واصررتم، ورفضتم الاّ طريق العناد، ممّا جعل (قيادة الثورة) تشعر بأنكم خصمها العنيد وعدوها اللدود، وأنتم تعرفون موقفها ممن يناصبها العداء، وما حكمه في قانونها، وقد اقترحت ان تعرض عليكم اموراً اذا انتم نزلتم علىٰ رأيها فيها أمنتم حكم القانون، وكان لكم ماتحبون من المكانة العالية، والجاه الكبير، والمنزلة الرفيعة لدىٰ الدولة ومسؤوليها تُقضىٰ بها كل حاجاتكم، وتُلبىٰ كل

رغباتكم.

وان ابيتم كان ما قد تعلمونه من حكمها نافذاً فيكم، سارياً عليكم مهما كانت الاحوال.

وامورنا التي نطرحها عليكم لايكلفكم تنفيذها شيئا، لتعودوا بعد ذلك مكرمين معزَّزين من حيث أتيتم، لتروا بعدها من فنون التعظيم والوان التكريم ما لم تره عيونكم، ومالا يخطر علىٰ بالكم.

اول تلك الامور: هو ان تعلنوا تأييدكم ورضاكم عن الحزب القائد وثورته.

وثانيها: ان تُعلنوا تنازلكم عن التدخل في الشؤون السياسية، وتعترفوا بأن الاسلام لا ربط له بشؤون الدولة، وتحرموا العمل التنظيمي الاسلامي.

وثالثها: ان تعلنوا تنازلكم عن تأييد الحكومة القائمة في ايران، وتظهروا تأييدكم لموقف العراق منها.

وهذه الامور كما ترون يسيرة التنفيذ، كبيرة الأثر، جمة النفع لكم قبلنا، فلا تضيعوا الفرصة التي بذلتها رحمة الثورة لكم. واذا رفضتم ذلك فأقل شيء يرضي ثورتنا عنكم هو مقابلة صحفية معكم تنشر في صحفنا).

كان هذا العلج اللئيم يتكلم، والامام يُظهر الإصغاء ويبتسم، قد احس والقوم قد رفعوا في وجهه حراب الوعيد ان عزمة الاباء تتعاظم في

انحائه، فهو ذلك الابي الرافض لم يتغير ولم يتحول، وأن روح الشمم تفيض في عروقه اكثر انطلاقاً واندفاقاً فهو ذلك الصلب الشامخ العنيد لم يضعف ولم يتزلزل، والفىٰ في نفسه والقوم قدمنّوه ووعدوه ان عزوفه عن الدنيا وزهده فيها صارا أضعافاً مضاعفة، وقد استباحا تلك البقية الضئيلة من مكان الدنيا المحللة التي كان يتقرب بها الىٰ ربه، وأتيا علىٰ شؤونها اليسيرة التي هي قدر حظه المفروض منها صيّره عبادة وزلفىٰ، وها هو يحس كأن جده الحسين تمثل له الآن شخصاً حيّاً يشير له بيدٍ مبتورة الإِصبع الىٰ كربلاء في يومها الدامي، الىٰ ساحة قد غمرتها الدماء، وانتشرت فيها جثث الازكياء.

ويسمع ذلك الشخص الحسيّ يقول له: (هذه كربلاؤنا وقد صدقنا فيها ربنا معرضين عن الدنيا اذ عرضت علينا واسعة بكل زخارفها علىٰ ان ننزل علىٰ حكم الطغاة، ونذل لاهواء الجناة، فأبىٰ الله لنا ذلك بإِبائنا، وحبانا بالشهادة تكرمة منه لنا، فما انتم صانعون في مكرور يومنا ذاك، ومجدد كربلائنا تلك، بفصول متشابهة، وامور متقاربة؟ لا ريب انكم علىٰ العهد، وانتم به وافون.

علىٰ طريق الفداء، وانتم اهله.

علىٰ موعد من الشهادة وهي ميراثكم).

ويرفع الامام رأسه بعد صمت وسكون، آمل الأشقياء فيهما نيل ما يُحبون، ليقولها صواعق تتنزل من السماء، وبراكين تتفجر من الارض، وبلايا جساماً تقبل من كل صوب، يطلع منها عليهم تيار الحيرة زخّاراً صخّاباً،

ويغرقون في متلاطم موجه بحراً عباباً، قد دهمهم شموخها بالامر العجاب، واخذ بمجامع القلوب والالباب، ليخرجوا بعدها من فرط صدقها وجلالها مقهورين، ولسلطان عزتها وتعاليها مأسورين.

كأني به قد قال لهم: (قد كنت احسب أنكم تعقلون القول او تتعقلون، فيفلّ حدّ عرامتكم إلزام الحجة، ويقهر غلواءكم وضوح البرهان: فقد وعظتكم بالمواعظ الشافية أرجو صلاحكم، وكاشفتكم من صادق النصح ما فيه فلاحكم، وأبنتُ لكم من مَثُلاتِ الله ماهو حسبكم زاجراً لكم لو كنتم تخافون المعاد، ونثرت لكم من مكنون علمي مايبلُّ غلّتكم لو كنتم الىٰ الحقيقة ظماء، ويشفي سقمكم لو كنتم تعلمون انكم مرضىٰ ضلال، ويحييكم بعد موتكم لو كنتم تشعرون انكم صرعىٰ غواية، حتىٰ حصحص أمركم، وصرّح مكنونكم أنكم اضل سبيلاً من الانعام السائمة، واقسىٰ قلوباً من الحجارة الخاوية، وأشرهُ الىٰ الظلم والعدوان من كواسر السِباع، لاتزدادون مع المواعظ الّا غيّا، ومع الزواجر الّا بغياً، اشباه اليهود، واتباع الشيطان واعداء الرحمن، قد نصبتم له الحرب الضروس، وشننتم علىٰ حرماته الغارة الرعناء، وتربصتم بأوليائه كلّ دائرة، وبسطتم اليهم ايديكم بكل مساءة، وقعدتم لهم كل مرصد، واخذتموهم علىٰ الشبهات، وقتلتموهم علىٰ الظنّة، علىٰ سنن آبائكم الأولين، تقتفون آثارهم، وتنهجون سبيلهم، لايردعكم عن كبائر الاثم رادع، ولايزعكم عن عظائم الجرم وازع، قد ركبتم ظهور

الاهواء فتقحمت بكم في المهالك، وأتبعتم داعي الشهوات فأوردكم اسوأ المسالك. قد نصبتم حبائل المكر، وأقمتم كمائن الغدر. لكم في كل ارض صريع ولكم في كل دار فجيع، تخضمون مال الله فكهين، وتكرعون في دماء الابرياء شرهين، فانتم والله كالخشب اليابس أعيىٰ علىٰ التقويم، وكالصخر الجامس أنأىٰ الأشياء عن التفهيم، فمالي بعد ذلك لا انفض يدي يأساً منكم؟ ياشذاذ الآفاق، وأوباش الخلق، وشرّ البرية، وعبدة الطاغوت، وأحفاد الفراعنة، وأذناب المستعبدين، اظننتم انكم بالموت تخيفونني؟ وبذكر القتل تلوونني؟ وليس الموت الا سنّة الله في خلقه كلهم علىٰ حياضه واردون، وليس القتل علىٰ ايدي الظالمين الا كرامة الله لعباده المخلصين.

فأجمعوا امركم، وكيدوا كيدكم، واسعَوْا سعيكم، فأمركم الىٰ تباب، وموعدكم سوء العذاب، لاتنالون من أمرنا ولا تطفئون نورنا.

واعجب مافي امركم مجيئكم اليّ بحلية الناصحين، تنمّقون القول، وتزوّرون اللسان، تعدونني خير العاجلة برضاكم، وثواب الدنيا بهواكم، تريدون مني ان ابيع الحق بالباطل، وأن أشري طاعة الله بطاعتكم، وان أسخطه لأُرضيكم، وان أخسر الحياة الباقية لأربح الحطام الزائل.

ضللت اذن وما أنا من المهتدين، تباً لكم ولما تريدون أظننتم ان الاسلام عندي شيء من المتاع يشترىٰ ويباع؟ او أنه شيء من عرض الدنيا يؤخذ ويعطىٰ؟ تعرضون لي فيه باهظ الثمن جاهلين، وتمنونني عليه زخارف

خادعة من الطين؟ اتعدونني عليه وتوعدون؟ وترغبونني فيه وتنذرون؟

فأوبوا بخيبتكم محسورين، وارجعوا علىٰ الاعقاب مدحورين، فوالله لا اعطيكم بيدي اعطاء الذليل، ولا اقر لكم اقرار العبيد.

فان كان عندكم غير الموت مما تخيفون به فهلمّوا به، أو كان لديكم سوىٰ القتل ماتنذرون به فكيدوني ولاتنظرون، لتبصروا ان لي بالجبال الشم شبيهاً من التعالي والشمم، وان عندي من الرواسي الشامخات مثيلاً من الرسوخ والثبات.

قولوا لمن بعثكم ومن وراءهم من اسيادهم ان دون ما تريدون من الصدر ألف قتلة بالسيف أو خطباً أمرّ منه، وان الذي تطلبونه منه لونٌ من المحال لا تبلغونه علىٰ أي حال.

ووالله لن تلبثوا بعد قتلي الاّ اذلة خائفين، تهول اهوالكم، وتتقلب احوالكم.

(يُسلّط الله عليكم بايديكم من يجرّعكم مرارة الذُّلّ والهوان، ويسقيكم صاب الهزيمة والخسران، يذيقكم مالم تحتسبوا من طعم العناء، ويريكم مالم تتوجّسوا من البلاء، فلا يزال بكم علىٰ هذه الحال، حتىٰ يؤول بكم الىٰ شر مآل، جموعاً مثبورة في الروابي والفلوات، وفلولاً مدحورة تطلب السلامة والنجاة، حتىٰ اذا انفضّ عديدُكم، وفُلّ حديدُكم، دمدم عليكم فدمر عروشكم، وتركّكم

ايادي سبأ، اشتاتاً بين من أكلتهم بواتره، ومن هاموا علىٰ وجوههم في الاقطار، وولّوا مذعورين الىٰ شتىٰ الأمصار)، ويورث الله المستضعفين ارضكم ودياركم واموالكم، فاذا بكم قد امسيتم لعنة تتجدد علىٰ أفواه الناس، وصفحة سوداء في احشاء التاريخ.

وينكفئ اعوان الشيطان اذلة خاسئين، حيارىٰ منهكين، قد اذهلتهم صرامة الامام، وملكت عليهم اقطار دنياهم حيث يديرون الطرف حيرة طاغية، وعجب قاهر، وذهول آسر.

وينقل حديث الامام الىٰ سمع صدام لتضطرم أحشاؤه منه بنارٍ لايعرف كيف يطفئها، ولتميد اركانه بزلزال لايدري كيف يقفه، ولتتكاثف عليه الحمم من بركان لا يرىٰ سبيلاً الىٰ اسكاته، حتىٰ هذا الذي اضمره له، وساومه به، وخطر في نفسه الساعة ان يعجل به له وهو القتل، لم يغير من حال رعبه وهلعه شيئاً، فليس هذا بسبيل نجاة منها، انما هو حيلة العاجزين، وغاية كيد المغلوبين.

وتفتح الباب صبيحة يوم جديد ليدخل علىٰ الامام رهطٌ من الجلادين تتقدمهم امرأة لها بمن أدخلوها عليه شبه في الخلقة والجسم، ولها منه نظير في الصلابة والعزم، وينظر الامام فاذا بها (اخته) (بنت الهدىٰ) فتأخذه رعدةٌ سرعان ماسكنت، وتشب في احشائه نار عجلان ماخمدت، ويكتفي في هذا المشهد بنظرتين ثاقبتين يلقيهما علىٰ اخته، فيهما صرامة

واقتدار، وفيها حديث ووصية، ثم يطرق الىٰ الارض لايرفع ناظريه، وأزبد الجلادون وأرعدوا، وهددوا وأوعدوا، وأنذروا بفظيعات الشرور، وجسيمات الأمور.

وكأن في اذن الامام وقراً عن سماع الوعيد، ودون قلبه ومايندرون حجاباً مستوراً من حديد.

وانصرفوا عنه باخته بعد حين، وقد جاؤوا بها اليه مساومين، وانقلبوا غير مفلحين، اسارىٰ البُرَحَاء ورهائن الغمّاء، ويمضون الىٰ اوليائهم يقصون عليهم قصّة الرفض يسمونها (العناد)، وآية الإباء يسمونها (الإصرار علىٰ الجرم).

فما هي الا بضع ساعات حتىٰ جاءهم الأمر المبيّت الذي ارادوا بالمساومة مع الامام بشتىٰ فنونها ان يظفروا بخير منه ما عسىٰ ان يكون علاجاً لدائهم، وأيسر منه ما عسىٰ ان يكون سبيلاً الىٰ غايتهم.

وهاهو ذا وجه هذا اليوم أسْيَفَ حزيناً، اسيان مفجوعاً.

قد علا وجهه شُحُوبٌ واسىً.

وملأ عينيه وفاض دمع الشجىٰ.

فهذا امام الخير والتقىٰ.

قد قضىٰ صبراً بين ايدي الطّغام.

وفاضت روحه علىٰ مرأىٰ اللّئام.

بعيداً عن ايدي الأحبَّاء.

وفي منأىٰ عن عيون الأولياء.

ليُلفَّ في اكفان الآثمين.

ثم يمضي الىٰ قبره في سكون مبين.

في ليل أيهم صامت ساتر.

تحمل نعشه كف العدو الفاجر.

وحيداً غريباً كأنه بلا حبيب.

وله ملك النفوس والضمائر والقلوب.

فليت شعري.

من كان يرجو ان يرىٰ قبل موته من احبابه؟

ومن واساه منهم في صروف موته واوصابه؟

وهل دمعت عيناه في لحظات الفراق الجسيم؟

تطرفان يميناً وشمالاً فلا ذو رحم ولا ولي ولا حميم.

وهل دعا بماء يطفئ غلةً كالنار في احشائه؟

فلم تسعفه وحدة نكراء فاقت كرب بأسائه.

ينادي بصوت خفيض صباه واسماءه.

ويدعو اليه لهيفاً جعفره وحوراءه.

همه قبل الفراق ان يراهم.

ويملأ قلبه المكدود من طيب مرآهم.
لكنما اعياه ما يرجو فأذعن لليأس والشجون.
وأغمض ناظريه لأمر الموت ملتاعاً بغمّه المكنون.
فقضىٰ ودمعة كالجمر قد بلّلت جفنيه.
وحسرة حرّىٰ خمدت وكانت تتلظىٰ بين جنبيه.
كلّا لم يذق صدرنا للموت غمّاً ولا كرباً.
ولا قاساه شراً، ولا عانىٰ له خطباً.
بل حبيب هام عشقاً.
ومعشوقه رَبّه ذو الجلال.
وصبٌّ ذاب شوقاً، وهذا الموت يؤذن بالوصال.
في المحضر الميمون للسلف العظام.
في المشهد المأنوس للملائكة الكرام.
لهم في سمع روحه نداء ناعم ودود.
بشراك بشراك هذا يوم الخلود.
هؤلاء هن الحور، وهذا هو النعيم المقيم.
في رحاب الحبيب وفي ظل الكريم.
﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾.

﴿يوم ترىٰ المؤمنين والمؤمنات يسعىٰ نورهم بين ايديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾. ﴿وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هـذا ماتوعدون لكل اوّابٍ حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب * ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد﴾.

وهكذا غاب عن الحياة وجه الصدر كما تغيب الشمس فاذا غريب الظلمة يطوي الارض فهي معتكرة مدلهمة، وكما تغيب النضرة عنها فاذا هي قفار موحشة، فلا تلك النفس الضاحكة تغمر انحاءها بالبشر والحبور، ولا ذلك القلب النديّ العابق الرفّاف يملأ اجواءها بالطيب والشذىٰ، ولا ذلك الصوت الملائكي يشنفها بترانيم العشق المقدس.

لقد ذهبت النفس الىٰ بارئها ليجد أهل الآخرة حظهم من جمال اللقاء وبهجة الوصال.

وانقلب القلب الرفيع علىٰ جناح المنيّة الىٰ عالم الغيب لتندىٰ به صفحاته.

وبقي ذلك الصوت العظيم وعياً في الافهام، وتدبراً في القلوب، وعزماً في النفوس.

كفكفي يا ارض دمعك، وامسحي ماء شؤونك فليس للصدر ألاّ يبين، فكلٌّ نفس ذائقة الموت.

ورحمة لها، اللهّم إنّها الأمّ الحانية التي أثكلت بمن أحبت علىٰ علم بعد أن كرهت علىٰ جهل، فودت ان لو تمادىٰ بها وبه الزّمان لتريه كيف يكون الندم علىٰ ماتقدّم، وكيف تجزيه بالاحسان علىٰ ما كان منه من الاحسان.